١١

اهداءات ٢٠٠١

الاستاذ / حسنى رياض

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسّر ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم الحادي عشر

تفسير السور الكريمة
النمل - القصص - العنكبوت

تأليف
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

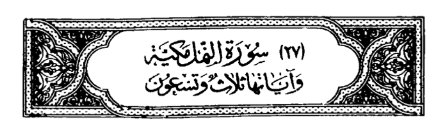
طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يُباع

دار القرآن الكريم
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ، العمارية ، الرياض



بين يدي السورة

* سورة النمل من السور المكية التي تهتم بالحديث عن أصول العقيدة « التوحيد ، والرسالة ، والبعث » وهي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية ، ووضعت في المصحف متتالية وهي « الشعراء ، والنمل ، والقصص » ويكاد يكون منهاجها واحداً ، في سلوك مسلك العظة والعبرة ، عن طريق قصص الغابرين .

* تناولت السورة الكريمة القرآن العظيم ، معجزة محمد الكبرى ، وحجته البالغة إلى يوم الدين ، فوضحت أنه تنزيل من حكيم عليم ، ثم تحدثت عن قصص الأنبياء بإيجاز في البعض ، وإسهاب في البعض ، فذكرت بالإجمال قصة « موسى » وقصة « صالح » وقصة « لوط » وما نال أقوامهم من العذاب والنكال ، بسبب إعراضهم عن دعوة الله ، وتكذيبهم لرسله الكرام .

* وتحدثت بالتفصيل عن قصة « داود » وولده « سليمان » وما أنعم الله عليهما من النعم الجليلة ، وما خصهما به من الفضل الكبير بالجمع بين النبوة والمُلْك الواسع ، ثم ذكرت قصة « سليمان مع بلقيس » ملكة سبأ .

* وفي هذه القصة مغزى دقيق لأصحاب الجاه والسلطان ، والعظماء والملوك ، فقد اتخذ سليمان المُلْك وسيلةً للدعوة إلى الله ، فلم يترك حاكماً جائراً ولا ملكاً كافراً إلا دعاه إلى الله ، وهكذا كان شأنه مع « بلقيس » حتى تركت عبادة الأوثان ، وأتت مع جندها خاضعةً مسلمةً ، مستجيبةً لدعوة الرحمن .

* وتناولت السورة الكريمة الدلائل والبراهين على وجود الله ووحدانيته ، من آثار مخلوقاته وبدائع صنعه ، وساقت بعض الأهوال والمشاهد الرهيبة ، التي يراها الناس يوم الحشر الأكبر ، حيث يفزعون ويرهبون ، وينقسمون إلى قسمين : السعداء الأبرار ، والذين يكبون على وجوههم في النار .

التسمية : سميت سورة النمل ، لأن الله تعالى ذكر فيها قصة النملة ، التي وعظت بني جنسها وذكّرت ثم اعتذرت عن سليمان وجنوده ، ففهم نبيُّ الله كلامها وتبسم من قولها ، وشكر الله على ما منحه من الفضل والإنعام ، وفي ذلك أعظم الدلالة على علم الحيوان ، وأنّ ذلك من إلهام الواحد الديان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾

اللغــة : ﴿يعمهـون﴾ يترددون ويتحيرون ، والعَمَهُ : التحير والتردُّد كما هو حال الضال عن الطريق قال الراجز : « أعْمى الهُدى بالحائرين العُمَّه » ﴿قَبَس﴾ القَبَس : النار المقبوسة من جمر وغيره ﴿تصطلون﴾ اصطلى يصطلي إذا استدفأ من البرد قال الشاعر :

النـارُ فاكهـةُ الشتـاءِ فمـن يُـرد أكْـلَ الفـواكه شاتياً فلْيصْطَلِ[١]

﴿بـورك﴾ من البركة وهي زيادة الخير والنماء قال الثعلبي : العرب تقول : باركك الله ، وبارك فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، أربعُ لغات قال الشاعر :

فبـوركـتَ مولـوداً وبـوركـت ناشئاً وبوركـتَ عنـد الشيب إذْ أنـت أشيب[٢]

﴿يُوزعون﴾ أصل الوزع الكفُّ والمنع يقال : وزَعه يزعه إذا كفَّه عن الشيء ومنعه ومنه قول عثمان « إن الله ليزَع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » قال النابغة :

على حيـن عاتبـتُ المشيبَ على الصِّبا وقلـتُ ألمَّا أصْحُ والشيبُ وازع

التفسير : ﴿طس﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وقد تقدم الكلام عليها[٣] ﴿تلـك آيـاتُ القـرآن﴾ أي هذه الآيات المنزَّلة عليك يا محمد هي آياتُ القرآن المعجز في بيانه ، الساطع في برهانه ﴿وكتـابٍ مبيـن﴾ أي وآياتُ كتابٍ واضحٍ مبين لمن تفكر فيه وتدبَّر ، أبان اللهُ فيه الأحكام ، وهدى به الأنـام ﴿هـدى وبشـرى للمـؤمنيـن﴾ أي تلك آيات القرآن الهـادي للمؤمنين إلى صراط مستقيم ، والمبشر لهم بجنات النعيم ، خصَّ المؤمنين بالذكر لانتفاعهم به ﴿الذيـن يقيمـون الصـلاة﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بخشوعها ، وآدابها ، وأركانها ﴿ويؤتـون الـزكـاة﴾ أي يدفعـون زكاة أموالهم طيبةً بها نفوسهم ﴿وهـم بالآخـرة هـم يوقنـون﴾ أي يصدِّقون بالآخرة تصديقاً جازماً لا يخالجه شك أو ارتياب قال الإمام الفخر : والجملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة ، فما يوقن بالآخرة حقَّ الإيقان إلاَّ هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق[٤] وقال أبو حيان : ولما كان ﴿يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ مما يتجدَّد ولا يستغرق الأزمان جاءت الصلة فعلاً ، ولما كان الإيمان بالآخرة بما هو ثابت ومستقر جاءت الجملة إسمية وأُكدت بتكرار الضمير ﴿وهـم بالآخـرة هـم يوقنـون﴾ وجاء خبر المبتدأ فعلاً ليدل على

(١) القرطبي ١٣/١٥٧ . (٢) البحر ٧/٥٥ . (٣) انظر تفصيل القول والتحقيق الدقيق في اول سورة البقرة . (٤) التفسير الكبير ٢٤/١٧٨

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

الديمومة[١] ، ولما ذكر تعالى المؤمنين الموقنين بالبعث ، ذكر بعدها المنكرين المكذبين بالآخرة فقال ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي لا يصدّقون بالبعث ﴿زيّنا لهم أعمالهم﴾ أي زينا لهم أعمالهم القبيحة حتى رأوها حسنة قال الرازي : والمراد من التزيين هو أن يخلق في قلبه العلم بما فيها من المنافع واللذات ، ولا يخلق في قلبه العلم بما فيها من المضار والآفات[٢] ﴿فهم يعمهون﴾ أي فهم في ضلال أعمالهم القبيحة يترددون حيارى لا يميزون بين الحسن والقبيح ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي لهم أشد العذاب في الدنيا بالقتل والأسر والتشريد ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ أي وخسارتهم في الآخرة أشد من خسارتهم في الدنيا لمصيرهم إلى النار المؤبدة والجحيم والأغلال ﴿وإنك لتُلقّى القرآن﴾ أي وإنك يا محمد لتتلقى هذا القرآن العظيم وتُعطاه ﴿من لدن حكيمٍ عليم﴾ أي من عند الله الحكيم بتدبير خلقه ، العليم بما فيه صلاحهم وسعادتهم قال الزمخشري : وهذه الآية بسطٌ وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص ، وما في ذلك من لطائف حكمته ، ودقائق علمه[٣] ﴿إذ قال موسى لأهله إني آنستُ ناراً﴾ أي اذكر يا محمد حين قال موسى لأهله - أي زوجته - إني أبصرتُ ورأيت ناراً قال المفسرون : وهذا عندما سار من مدين إلى مصر ، وكان في ليلة مظلمة باردة ، وقد ضلَّ عن الطريق وأخذ زوجته الطَّلْقُ ﴿سآتيكم منها بخبر﴾ أي سآتيكم بخبرٍ عن الطريق إذا وصلتُ إليها ﴿أو آتيكم بشهابٍ قبس﴾ أي أو آتيكم بشعلةٍ مقتبسة من النار ﴿لعلكم تصطلون﴾ أي لكي تستدفئوا بها ﴿فلمّا جاءها﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار رأى منظراً هائلاً عظيماً ، حيث رأى النار تضطرم في شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ولا تزداد الشجرةُ إلا خضرةً ونُضْرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصلٌ بعنان السماء قال ابن عباس : لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج[٤] فوقف موسى متعجباً ممّا رأى وجاءه النداء العلوي ﴿نُودي أن بُورك مَنْ في النار ومن حولَها﴾ أي نودي من جانب الطور بأن بوركتَ يا موسى وبورك من حولك وهم الملائكة قال ابن عباس : معنى﴿ بورك ﴾تقدَّس ﴿ومن حولها﴾ الملائكةُ قال أبو حيان : وبدؤه بالنداء تبشيرٌ لموسى وتأنيسٌ له ومقدمةٌ لمناجاته ، وجديرٌ أن يبارك من في النار ومن حواليها إذ قد حدث أمرٌ عظيم.وهو تكليم الله لموسى وتنبيئه[٥] ﴿وسبحان اللهِ ربِّ العالمين﴾ أي تقدَّس وتنزَّه ربُّ العزة ، العليُّ الشأن ، الذي لا يشبهه شيء من مخلوقاته لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيزُ الحكيم﴾ أي أنا الله القويُّ القادر ، العزيز الذي لا

(١) البحر ٧/ ٥٣ .(٢) التفسير الكبير ٢٤/ ١٧٩ . (٣) الكشاف ٣/ ٢٧٥ .(٤) ابن كثير ٢/ ٦٦٦ المختصر (٥) البحر المحيط ٧/ ٥٦

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

يُقهر ، الحكيم الذي يفعل كل شيء بحكمةٍ وتدبير ﴿وألقِ عصاك﴾ عطفٌ على السابق أي ونودي أن ألق عصاك لترى معجزتك بنفسك فتأنس بها ﴿فلما رآها تهتز كأنها جانٌّ﴾ أي فلما رآها تتحرك حركة سريعة كأنها ثعبان خفيف سريع الجري ﴿ولّى مدبراً ولم يُعقّب﴾ أي ولّى الأدبار منهزماً ولم يرجع لما دهاه من الخوف والفزع قال مجاهد : « لم يُعقّب » لم يرجع ، وقال قتادة : لم يلتفت ، لحقه ما لحق طبع البشر إذ رأى أمراً هائلاً جداً وهو انقلاب العصا حيةً تسعى ولهذا ناداه ربه ﴿يا موسى لا تخف﴾ أي أقبل ولا تخف لأنك بحضرتي ومن كان فيها فهو آمنٌ ﴿إنه لا يخاف لديَّ المرسلون﴾ أي فأنت رسولي ورسلي الذين اصطفيتهم للنبوة لا يخافون غيري قال ابن الجوزي : نبَّهه على أن من آمنه الله بالنبوة من عذابه لا ينبغي أن يخاف من حيَّة[1] ﴿إلا من ظلم ثم بدَّل حُسْناً بعد سوء﴾ الاستثناء منقطع أي لكنْ من ظلم من سائر الناس لا من المرسلين فإنه يخاف إلا إذا تاب وبدَّل عمله السيء إلى العمل الحسن ﴿فإني غفور رحيم﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة قال ابن كثير : وفيه بشارة عظيمةٌ للبشر وذلك أن من كان على عمل سيء ، ثم أقلع ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه كقوله ﴿وإني لغفّارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾[2] ﴿وأدْخل يدكَ في جيبك تخرجْ بيضاء من غير سوء﴾ هذه معجزةٌ أُخرى لموسى تدل على باهر قدرة الله والمعنى أدخل يا موسى يدك في فتحة ثوبك ثم أخرجها تخرج مضيئة ساطعة بيضاء تتلألأ كالبرق الخاطف دون مرضٍ أو برص ﴿في تسع آياتٍ إلى فرعون وقومه﴾ أي هاتان المعجزتان « العصا واليد » ضمن تسعِ معجزاتٍ أيدتك بها وجعلتُها برهاناً على صدقك لتذهب بها إلى فرعون وقومه ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي خارجين عن طاعتنا ، ممعنين في الكفر والضلال ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرةً﴾ أي فلما رأوا تلك المعجزات الباهرة ، واضحةً بينةً ظاهرة ﴿قالوا هذا سحرٌ مبين﴾ أي أنكروها وزعموا أنها سحرٌ واضح ﴿وجحدوا بها﴾ أي كفروا وكذبوا بتلك الخوارق ﴿واستيقنتها أنفسُهم﴾ أي وقد أيقنوا بقلوبهم أنها من عند الله وليست من قبيل السحر ﴿ظلماً وعلواً﴾ أي جحدوا بها ظلماً من أنفسهم ، واستكباراً عن اتباع الحق ، وأيُّ ظلمٍ أفحش ممن يعتقد ويستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله ، ثم يكابر بتسميتها سحراً ؟ ولهذا قال ﴿فانظرْ كيف كان عاقبةُ المفسدين﴾ أي انظر أيها السامع وتدبر بعين الفكر والبصيرة ماذا كان مآلُ أمر الطاغين ، من الإغراق في الدنيا ، والإحراق في الآخرة ؟ قال ابن كثير : وفحوى الخطاب كأنه يقول :

(١) زاد المسير ٦/ ١٥٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٦٧ .

ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

احذروا أيها المكذبون لمحمد ، الجاحدون لما جاء به من ربه ، أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى، فإن محمداً ﷺ أشرفُ وأعظمُ من موسى ، وبرهانُه أدلُّ وأقوى من برهان موسى، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم[1] ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ هذه هي القصة الثانية في السورة الكريمة وهي قصة « داود وسليمان » والمعنى واللهِ لقد أعطينا داود وابنه سليمان علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين ، وجمعنا لهما بين سعادة الدنيا والآخرة قال الطبري : وذلك علم كلام الطير والدواب وغير ذلك مما خصَّهم الله بعلمه[2] ﴿وقالا الحمدُ لله الذي فضَّلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين﴾ أي وقالا شكراً للّه الحمد لله الذي فضلنا بما آتانا من النبوة ، والعلم ، وتسخير الإِنس والجن والشياطين ، على كثيرٍ من عباده المؤمنين ﴿وورثَ سليمانُ داودَ﴾ أي ورث سليمانُ أباه في النبوة ، والعلم ، والمُلْك دون سائر أولاده قال الكلبي : كان لداود تسعة عشر ولداً فورث سليمانُ من بينهم نبوته وملكه ، ولو كانت وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء[3] ﴿وقال يا أيها النَّاسُ عُلِّمنا منطق الطير﴾ أي وقال تحدثاً بنعمة الله : يا أيها الناسُ لقد أكرمنا اللهُ فعلَّمنا منطق الطير وأصوات جميع الحيوانات ﴿وأُوتينا من كل شيء﴾ أي وأعطانا الله من كل شيء من خيرات الدنيا يعطاها العظماء والملوك ﴿إنَّ هذا لهو الفضلُ المبين﴾ أي إن ما أُعطيناه وما خصَّنا الله به من أنواع النعم لهو الفضل الواضح الجلي ، قاله على سبيل الشكر والمحمدة لا على سبيل العلوّ والكبرياء ﴿وحُشر لسليمانَ جنوده من الجنِّ والإِنسِ والطير﴾ أي جمعت له جيوشه وعساكره وأُحضرت له في مسيرةٍ كبيرة فيها طوائف الجن والإِنس والطير ، يتقدمهم سليمان في أُبَّهة وعظمةٍ كبيرة ﴿فهم يُوزعون﴾ أي فهم يُكَفُّون ويمنعون عن التقدم بين يديه قال ابن عباس : جعل على كل صنفٍ من يردُّ أولاها على أُخراها لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك[4] ﴿حتى إذا أتوْا على وادي النمل﴾ أي حتى إذا وصلوا إلى وادٍ بالشام كثير النمل ﴿قالت نملةٌ يا أيُّها النمل ادخلوا مساكنكم﴾ أي قالت إحدى النملات لرفيقاتها ادخلوا بيوتكم ، خاطبتهم مخاطبة العقلاء لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء ﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾ أي لا يكسرنَّكم سليمانُ وجيوشه بأقدامهم ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي وهم لا يشعرون بكم ولا يريدون حطمكم عن عمد حذَّرت ثم اعتذرت لأنها علمت أنه

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٦٧ . (٢) الطبري ١٩/ ٨٧ . (٣) القرطبي ١٣/ ١٦٤ . (٤) الطبري ١٩/ ٨٨ .

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

نبيٌّ رحيم ، فسمع سليمان كلامها وفهم مرامها ﴿فتبسَّم ضاحكاً من قولها﴾ أي فتبسَّم سروراً بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده ، فإن قولها ﴿وهم لا يشعرون﴾ وصفٌ لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان ﴿وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ﴾ أي ألهمني ووفقني لشكر نعمائك وأفضالك التي أنعمت بها عليَّ وعلى أبويَّ ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي ووفقني لعمل الخير الذي يقربني منك والذي تحبه وترضاه ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ أي وأدخلني الجنة دار الرحمة مع عبادك الصالحين .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿تلك آياتُ القرآن﴾ للإيذان ببعد منزلته في الفضل والشرف .

٢ - التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿وكتابٍ مبين﴾ أي كتابٍ عظيم الشأن رفيع القدر .

٣ - ذكر المصدر بدل اسم الفاعل للمبالغة ﴿هدى وبشرى﴾ أي هادياً ومبشراً .

٤ - تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ ومثله ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ وفيه المقابلة اللطيفة بين الجملتين .

٥ - التأكيد بإنَّ واللام ﴿وإنك لتُلقَّى القرآن﴾ لوجود المتشككين في القرآن .

٦ - إيجاز الحذف ﴿وألق عصاك فلما رآها تهتز﴾ حذفت جملة فألقاها فانقلبت الى حية الخ وذلك لدلالة السياق عليه .

٧ - الطباق ﴿حُسناً بعد سوء﴾ . وبين ﴿ولَّى مدبراً . . ولم يُعقِّب﴾ .

٨ - الاستعارة ﴿آياتنا مبصرة﴾ استعار لفظ الإبصار للوضوح والبيان لأن بالعينين يبصر الإنسان الأشياء .

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنها جانٌّ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فصار مرسلاً مجملاً .

١٠ - حسن الاعتذار ﴿وهم لا يشعرون﴾ .

لطيفة : قال بعض العلماء هذه الآية ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم . .﴾ من

عجائب القرآن لأنها بلفظة « يـا » نادت « أيها »نبَّهت« النمل » عيَّنت « ادخلوا » أمرت « مساكنكم » نصَّت « لا يحطمنكم » حذَّرت « سليمان » خصت « وجنوده » عمَّت « وهم لا يشعرون »اعتـذرت ، فيا لها من نملة ذكية ! !

* *

قال الله تعالى : ﴿وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد . . إلى . . وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ من آية (٢٠) إلى نهاية آية (٤٤) .

المناسَبَة : لا تزال الآيات تتحدث عن« سليمان بن داود »الذي جمع الله له بين« النبوة والمُلْك » فكان نبياً ملكاً ، وسخر له الإنس والجن وعلمه منطق الطير ، وتذكر الآيات هنا قصته مع « بلقيس » ملكة سبأ وما كان من الأمور العجيبة التي حدثت في زمانه .

اللغَـة : ﴿تفقَّد﴾ التفقد : طلب ما غاب عن الإنسان ﴿الخبء﴾ : الشيءُ المخبوء من خبأتُ الشيء أخبؤه خبأ إذا سترته ﴿صاغرون﴾ أذلاء مهانون من الصَّغار وهو الذل ﴿عفريتٌ﴾ العفريت : القويُّ المارد من الشياطين ومن الإنس،والخبيث الماكر ﴿الصَّرح﴾ القصر ، وكلُّ بناءٍ عال مرتفع يسمى صرحاً ومنه قول فرعون « يا هامان ابن لي صَرْحاً » ﴿ممرَّد﴾ الممرَّد : المملَّس ، والأمرد الذي لم تخرج لحيته بعد إدراكه ، وشجرةٌ مرداء:لا ورقَ عليها ﴿قوارير﴾ جمع قارورة وهي الزجاجة .

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

التفسِير : ﴿وتفقَّد الطير﴾ أي بحث سليمان وفتَّش عن جماعة الطير ﴿فقال ما لي لا أرى الهُدْهد﴾ أي لم لا أرى الهُدهد ههنا ؟ قال المفسرون : كانت الطير تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها ، فلما فصل سليمان عن وادي النمل ونزل في قفر من الأرض،عطش الجيش فسألوه الماء ،وكان الهدهد يدله، على الماء فإذا قال : ههنا الماء شقت الشياطين وفجَّرت العيون ، فطلبه في ذلك اليوم فلم يجده فقال مالي لا أراه ﴿أم كان من الغائبين﴾ أمْ منقطعة بمعنى « بل » أي بل هو غائب ، ذهب دون إذنٍ مني ﴿لأعذبنَّه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينّي بسلطانٍ مبين﴾ أي لأعاقبنه عقاباً أليماً بالسجن أو نتف الريش أو الذبح أو ليأتيني بحجة واضحة تبيِّن عذره ﴿فمكث غير بعيد﴾ أي فأقام الهدهد زماناً يسيراً ثم جاء إلى سليمان ﴿فقال أحطتُ بما لم تُحط به﴾ أي اطلعت على ما لم تطّلع عليه وعرفت ما لم تعرفه ﴿وجئتُك من سبإٍ بنبإٍ يقين﴾ أي وأتيتك من مدينة سبأ ـ باليمن ـ بخبرٍ هامٍ ، وأمر صادقٍ خطير ﴿إني وجدتُ امرأةً تملكُهم﴾ أي من عجائب ما رأيت أن امرأة ـ تسمى بلقيس ـ هي ملكة لهم، وهم

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يدينون بالطاعة لها[1] ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ أي وأعطيت من كل شيء من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك من أسباب الدنيا من سعة المال وكثرة الرجال ووفرة السلاح والعتاد ﴿ولها عرش عظيم﴾ أي ولها سرير كبير مكلَّل بالدر والياقوت قال قتادة : كان عرشُها من ذهب ، قوائمُه من جوهر ، مكلَّل باللؤلؤ قال الطبري : وعنى بالعظيم في هذا الموضع العظيم في قدره وخطره ، لا عِظمه في الكبر والسعة ، ولهذا قال ابن عباس : ﴿عرش عظيم﴾ أي سرير كريم حسن الصنعة ، وعرشُها سريرٌ من ذهب قوائمُه من جوهرٍ ولؤلؤ[2] ، ثم أخذ يحدثه عما هو أعظم وأخطر فقال ﴿وجدتُّها وقومَها يسجدون للشمس من دون الله﴾ أي وجدتهم جميعاً مجوساً يعبدون الشمس ويتركون عبادة الواحد الأحد ﴿وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم﴾ أي حسَّن لهم إبليس عبادتهم الشمس وسجودهم لها من دون الله ﴿فصدّهم عن السبيل﴾ أي منعهم بسبب هذا الضلال عن طريق الحق والصواب ﴿فهم لا يهتدون﴾ أي فهم بسبب إغواء الشيطان لا يهتدون إلى الله وتوحيده ، ثم قال الهدهد متعجباً ﴿ألاّ يسجدوا لله الذي يُخرج الخَبْءَ في السموات والأرض﴾ أي أيسجدون للشمس ولا يسجدون للّهِ الخالق العظيم ، الذي يعلم الخفايا ويعلم كل مخبوء في العالم العلوي والسفلي[3]؟ قال ابن عباس : يعلم كل خبيئةٍ في السماء والأرض ﴿ويعلمُ ما تُخفون وما تعلنون﴾ أي ويعلم السرَّ والعلن ، ما ظهر وما بطن ﴿اللهُ لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ أي هو تعالى المتفرد بالعظمة والجلال ، ربُّ العرش الكريم المستحق للعبادة والسجود ، وخصَّ العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات ، وإلى هنا انتهى كلام الهُدهد ﴿قال سننظر أصدقتَ أم كنتَ من الكاذبين﴾ أي قال سليمان : سننظر في قولك ونتثبت هل أنت صادقٌ أم كاذب فيه ؟ قال ابن الجوزي : وإنما شكَّ في خبره لأنه أنكر أن يكون لغيره سلطان ، ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهُدهد وقال ﴿إذهبْ بكتابي هذا فألقهْ إليهم﴾ أي اذهب بهذا الكتاب وأوصلْه إلى ملكة سبأ وجندها ﴿ثم تولَّ عنهم﴾ أي تنحَّ إلى مكان قريب مستتراً عنهم ﴿فانظرُ ماذا يرجعون﴾ أي فانظر ماذا يردون من الجواب ؟ قال المفسرون : أخذ الهدهد الكتاب وذهب إلى بلقيس وقومها ، فرفرف فوق رأسها ثم

---

(١) وجه العجب أن الملوك عادة من الرجال وأن النساء لا يصلحن لإدارة الممالك ويؤ يده حديث (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) هذا هو منطق الفطرة . (٢) الطبري ١٩/ ٩٢ . (٣) هذا ما انقدح في ذهني من معنى الآية الكريمة ، ولعله هو الأقرب إلى فهم روح النص القرآني فإن المجال مجال تعجب وإنكار ، لا مجال حديث وإخبار ، فما ذهب إليه بعض المفسرين من أن « لا » زائدة وأن المعنى فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله أو أن المعنى ألا يا هؤلاء فاسجدوا . . الخ غير ظاهر والله أعلم .

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ

ألقى الكتاب في حجرها ﴿قالتْ يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتاب كريم﴾ أي قالت لأشراف قومها إنه أتاني كتاب عظيم جليل ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أي إن هذا الكتاب مرسل من سليمان ثم فتحته فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم وهو استفتاح شريفٌ بارع فيه إعلان الربوبية للّه ثم الدعوة إلى توحيد الله والانقياد لأمره ﴿ألاَّ تعلْوا عليّ وأْتوني مسلمين﴾ أي لا تتكبروا عليّ كما يفعل الملوك وجيئوني مؤمنين قال ابن عباس : أي موحدين ، وقال سفيان : طائعين ﴿قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري﴾ أي أشيروا عليَّ في الأمر ﴿ما كنتُ قاطعةً أمراً حتى تشهدون﴾ أي ما كنتُ لأقضي أمراً بدون حضوركم ومشورتكم ﴿قالوا نحن أولوا قوةٍ وأولوا بأسٍ شديد﴾ أي نحن أصحابُ كثرةٍ في الرجال والعتاد ، وأصحابُ شدةٍ في الحرب ﴿والأمرُ إليك فانظري ماذا تأمُرين﴾ ؟ أي وأمرنا إليكِ فمرينا بما شئتِ نمتثل أمرك ، وقولهم هذا دليلٌ على الطاعة المفرطة قال القرطبي : أخذتْ في حسن الأدب مع قومها ومشاورتهم في أمرها في كل ما يعرض لها ، فراجعها الملأ بما يُقر عينها من إعلامهم إياها بالقوة والبأس ، ثم سلّموا الأمر إلى نظرها ، وهذه محاورة حسنة من الجميع[1] قال الحسن البصري : فوَّضوا أمرهم إلى عِلجةٍ يضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم منهم رأياً وأعلم[2] ﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها﴾ أي إن عادة الملوك أنهم إذا استولوا على بلدةٍ عنوةً وقهراً خربوها ﴿وجعلوا أعزةَ أهلها أذلةً﴾ أي أهانوا أشرافها وأذلوهم بالقتل والأسر والتشريد ﴿وكذلك يفعلون﴾ أي وهذه عادتهم وطريقتهم في كل بلدٍ يدخلونها قهراً ، ثم عدلت إلى المهادنة والمسالمة فقالت ﴿وإني مرسلةٌ إليهم بهديةٍ فناظرةٌ بم يرجع المُرسلون﴾ أي وإني سأبعث إليه بهدية عظيمة تليقُ بمثله ،فأنظر هل يقبلها أم يردُّها ؟ قال قتادة : ما كان أعقلها في إسلامها وشركها ! ! علمتْ أن الهدية تقع موقعاً من الناس ، وقال ابن عباس : قالت لقومها إن قبلَ الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبيٌّ صادق فاتبعوه[3] ﴿فلما جاء سليمانَ قال أتمدونن بمال﴾ ؟ أي فلما جاء رسل بلقيس إلى سليمان بالهدية العظيمة قال منكراً عليهم : أتصانعونني بالمال والهدايا لأترككم على كفركم وملككم ؟ ﴿فما آتاني الله خيرٌ مما آتاكم﴾ أي فما أعطاني الله من النبوة والمُلك الواسع خيرٌ مما أعطاكم من زينة الحياة

(١) القرطبي ١٣/ ١٩٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٧١ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٧١ . (٤) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٧١ .

تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

فلا حاجة لي بهديتكم ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ أي أنتم تفرحون بالهدايا لأنكم أهل مفاخرةٍ ومكاثرة في الدنيا ، ثم قال لرئيس الوفد ﴿إرجع إليهم فلنأتينَّهم بجنودٍ لا قِبَل لهم بها﴾ أي ارجع إليهم بهديتهم فوالله لنأتينَّهم بجنودٍ لا طاقة لهم بمقابلتها ، ولا قدرة لهم على مقاتلتها ﴿ولنخرجنهم منها أذلةً وهم صاغرون﴾ أي ولنخرجنهم من أرضهم ومملكتهم أذلاء حقيرين إن لم يأتوني مسلمين قال ابن عباس : لما رجعت رسلُ بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها الخبر قالت قد عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وبعثت إلى سليمان إني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك ، وما تدعو إليه من دينك ثم ارتحلت إلى سليمان في اثني عشر ألف قائد[1] ﴿قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ ؟ أي قال سليمان لأشراف من حضره من جنده : أيكم يأتيني بسريرها المرصَّع بالجواهر قبل أن تصل إليَّ مع قومها مسلمين ؟ قال البيضاوي : أراد بذلك أن يريها بعض ما خصه الله به من العجائب ، الدالة على عظيم القدرة ، وصدقه في دعوى النبوة ، ويختبر عقلها بأن ينكّر عرشها فينظر أتعرفه أم تنكره[2] ؟ ﴿قال عفريتٌ من الجنِّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ أي قال ماردٌ من مردة الجنِّ : أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلس الحكم ـ وكان يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم ـ وغرضُه أنه يأتيه به في أقل من نصف نهار ﴿وإني عليه لقويٌّ أمين﴾ أي وإني على حمله لقادرٌ ، وأمينٌ على ما فيه من الجواهر والدُّر وغير ذلك ﴿قال الذي عنده عِلْمٌ من الكتابِ أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك﴾ قال المفسرون : هو « آصف بن برخيا » كان من الصِّدِّيقين يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ، وهو الذي أتى بعرش بلقيس وقال لسليمان : أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك أي آتيك به بلمح البصر فدعا الله فحضر العرشُ حالاً ﴿فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي﴾ أي فلما نظر سليمان ورأى العرش ـ السرير ـ حاضراً لديه قال : هذا من فضل الله عليَّ ، وإحسانه إليَّ ﴿ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾ ؟ أي ليختبرني أأشكر إنعامه ، أم أجحد فضله وإحسانه ؟ ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾ أي ومن شكر فمنفعة الشكر لنفسه ، لأنه يستزيد من فضل الله ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ ﴿ومن كفر فإن ربي غنيٌّ كريم﴾ أي ومن لم يشكر وجحد فضل الله

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٤٩٣ . (٢) البيضاوي ٢/٨٣ .

قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

فإن الله مستغنٍ عنه وعن شكره ، كريــمٌ بالإنعام على من كفر نعمته . . ولما قرُب وصولُ ملكة سبأ إلى بلاده أمر بأن تُغيَّر بعضُ معالم عرشها امتحاناً لها ﴿قال نكّروا لها عرشها﴾ أي غيّروا بعض أوصافه وهيئته كما يتنكر الإنسان حتى لا يُعرف ﴿ننظُر أتهتدي أم تكونُ من الذين لا يهتدون﴾ أي لننظر إذا رأته هل تهتدي إلى أنه عرشها وتعرفه أم لا ؟ أراد بذلك اختبار ذكائها وعقلها ﴿فلما جاءت قيل أهكذا عرشك﴾ ؟ أي أمثل هذا العرش الذي رأيتيه عرشك ؟ ولم يقل : أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً لها ﴿قالت كأنه هو﴾ أي يشبهه ويقاربه ولم تقل : نعم هو ، ولا ليس هو قال ابن كثير : وهذا غاية في الذكاء والحزم[1] ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ هذا من قول سليمان أي قال سليمان تحدثاً بنعمة الله : لقد أوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله وبقدرته وكنا مسلمين لله من قبلها ، فنحن أسبقُ منها علماً وإسلاماً ﴿وصدَّها ما كانت تعبد من دون الله﴾ أي منعها عن الايمان بالله عبادتُها القديمة للشمس والقمر ﴿إنها كانت من قومٍ كافرين﴾ أي بسبب كفرها ونشوئها بين قوم مشركين ﴿قيل لها ادخلي الصرح﴾ أي ادخلي القصر العظيم الفخم ﴿فلما رأته حسبته لُجّةً وكشفت عن ساقيها﴾ أي فلما رأت ذلك الصرح الشامخ ظنته لجة ماء - أي ماءً غمراً كثيراً - وكشفت عن ساقيها لتخوض فيه ﴿قال إنه صرحٌ مُمرَّدٌ من قوارير﴾ أي قال سليمان : إنه قصر مملَّس من الزجاج الصافي ﴿قالت ربِّ إني ظلمتُ نفسي﴾ أي قالت بلقيس حينئذٍ: ربِّ إني ظلمت نفسي بالشرك وعبادة الشمس ﴿وأسلمتُ مع سليمانَ لله رب العالمين﴾ أي وتابعتُ سليمان على دينه فدخلت في الإسلام مؤمنةً برب العالمين ، قال ابن كثير : والغرضُ أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ، ليريها عظمة سلطانه وتمكنه ،فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره ، انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبيٌّ كريم ، وملِكٌ عظيم ، وأسلمت لله عز وجل[2] .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - أسلوب التعجب ﴿مالي لا أرى الهدهد﴾ ؟

٢ - التأكيد المكرر ﴿لأعذبنّه . . أو لأذبحنّه . . أو ليأتيني﴾ لتأكيد الأمر .

(١) ابن كثير ٢/ ٦٧٣ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٧٤ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٧١ .

٣ ـ طباق السلب ﴿أحطتُ بما لم تُحط به﴾ وكذلك ﴿تهتدي . . لا يهتدون﴾ .

٤ ـ الجناس اللطيف ﴿وجئتك من سبأ بنبأ﴾ ويسمى الجناس الناقص لتبدل بعض الحروف[1] .

٥ ـ الطباق في اللفظ ﴿تُخْفون . . وتعلنون﴾ وكذلك ﴿أأشكر أم أكفر﴾ .

٦ ـ الطباق في المعنى ﴿أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ .

قال علماء البيان : والمطابقة هنا بالمعنى أبلغ من اللفظ لأنه عدول عن الفعل إلى الإسم فيفيد الثبات فلو قال « أصدقت أم كذبت » لما أدّى هذا المعنى لأنه قد يكذب في هذا الأمر ولا يكذب في غيره ، وأما قوله ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ فإنه يفيد أنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة فلا يوثق به أبداً .

٧ ـ جناس الاشتقاق ﴿تقوم من مقامك﴾ وكذلك ﴿أسلمتُ مع سليمان﴾ .

٨ ـ التشبيه ﴿كأنه هو﴾ أي كأنه عرشي في الشكل والوصف ويسمى « مرسلاً مجملاً » .

٩ ـ الاستعارة البديعة ﴿قبل أن يرتدَّ إليك طرفك﴾ شبَّه سرعة مجيئه بالعرش برجوع الطرف للإنسان ، وارتدادُ الطرف معناه التقاء الجفنين وهو أبلغ ما يمكن أن يوصف به في السرعة ومثله « وما أمرُ الساعةِ إلا كلمح البصر أو هو أقرب » فاستعار للسرعة الفائقة ارتداد الطرف[2] .

١٠ ـ توافق الفواصل في كثير من الآيات ، ولها وقعٌ في النفس رائع مثل ﴿أم كان من الغائبين﴾ ﴿أو ليأتيني بسلطانٍ مبين﴾ ﴿وجئتك من سبإٍ بنبإٍ يقين﴾ إلى آخر ما هنالك .

لطيفة : أخذ بعض العلماء من قوله تعالى ﴿وتفقَّد الطير﴾ استحباب تفقد الملك لأحوال الرعية ، وكذلك تفقد الأصدقاء ، والإخوان ، والخلان وأنشد بعضهم :

سنَّ سُليمانُ لنا سُنَّةً وكان فيما سنَّه مُقْتدى
تفقَّد الطيرَ على مُلْكه فقال : مالِيَ لا أرى الهُدْهدا ؟

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً . . إلى . . بل هم منها عمون﴾ من آية (٤٥) إلى نهاية آية (٦٦) .

المناسَبَة : لما ذكر تعالى في أول السورة قصة موسى ، ثم أعقبها بقصة داوٗد وسليمان وما فيها من العجائب والغرائب ، ذكر هنا قصة « صالح » ثم قصة « لوط » وكلٌ هذه القصص غرضُها التذكير

(١) قال صاحب الكشاف : وهذا من محاسن الكلام بشرط أن يجيء مطبوعاً غير متكلف أو يصنعه عالم بجوهر الكلام ، ولقد حسن في الآية وبدع لفظاً ومعنى ، ألا ترى أنه لو وضع مكان « بنبأ » لفظة « بخبر » لكان المعنى صحيحاً ولكن يفوت ما في النبأ من الزيادة التي معناها الخبر الملم والتي يطابقها وصف الحال . (٢) انظر تلخيص البيان ص ٢٦١ .

والاعتبار ، وبيانُ سنة الله في إهلاك المكذبين ، ثم أتبعها بذكر البراهين الدالة على الوحدانية ، والعلم ، والقدرة .

اللغَــة : ﴿اطَّيرنـا﴾ من التطير وهو التشاؤم قال الزجاج : أصلُها تطيَّرنا فأُدغمت التاء في الطاء واجتُلبت الألف لسكون الطاء ﴿خاوية﴾ خالية من خوى البطنُ إذا خلى ، وخوى النجم إذا سقط ﴿الفاحشة﴾ الفعلة القبيحة الشنيعة ﴿حدائق﴾ جمع حديقة وهي البستان الذي عليه سور قال الفراء : الحديقةُ البستانُ الذي عليه حائط ، فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان[1] ﴿قراراً﴾ مستقراً يثبت عليه الشيء ﴿حاجزاً﴾ الحاجز : الفاصل بين الشيئين .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾

التفسِــير : ﴿ولقـد أرسلنـا إلـى ثمـودَ أخاهُـم صالحـاً أن اعبُـدوا اللّـه﴾ اللام جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم ـ في النسب لا في الدين ـ صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته ﴿فإذا هـم فريقـان يختصـمـون﴾ أي فإذا هـم جماعتـان : مؤمنـون وكافـرون يتنازعون في شأن الدين قال مجاهد : « فريقان : مؤمنٌ ، وكافر » واختصامُهـم : اختلافهم وجدالهم في الدين ، وجاء الفعل بالجمع ﴿يختصمـون﴾ حملاً على المعنى ﴿قـال يـا قـوم لـم تستعجلون بالسيئـةِ قبـلَ الحسنة﴾ أي قال لهم صالح بطريق التلطف والرفق : يا قومِ لم تطلبون العذاب قبل الرحمة ؟ ولأي شيء تستعجلون بالعذاب ولا تطلبون الرحمة ؟ ﴿لـولا تستغفـرون اللـهَ لعلكـم تُرْحمـون﴾ أي هلاَّ تتوبون إلى الله من الشرك لكي يتوب الله عليكم ويرحمكم ؟ قال المفسرون : كان الكفار يقولون لفرط الإنكار : يا صالح ائتنا بعذاب الله فقال لهم : هـلاَّ تستغفرون الله قبل نزول العذاب ، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر ! ! ﴿قالـوا اطَّيرنـا بـكَ وبمـن معـك﴾ أي تشاءمنا بك يا صالح وبأتباعك المؤمنين فإنكم سبب ما حلَّ بنا من بلاء ، وكانوا قد أصابهم القحط وجاعوا ﴿قال طائركـم عنـد اللـه﴾ أي حظكم في الحقيقة من خيرٍ أو شر هو عند الله وبقضائه ، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم . . لمَّا لاطفهم في الخطاب أغلظوا له في الجواب وقالوا تشاءَمنا بك وبمن معك ، فأخبرهم أن شؤمهم بسبب عملهم لا بسبب صالح والمؤمنين ﴿بـل أنتـم قـومٌ تُفْتنـون﴾ أي بل الحقيقةُ أنكم جماعة يفتنكم الشيطان بوسوسته وإغوائه ولذلك تقولون ما تقولون ﴿وكـان فـي المدينـة تسعـةُ رهـطٍ﴾ أي وكان في مدينة صالح ـ وهي الحِجْر ـ تسعةُ رجالٍ من أبناء أشرافهم قال الضحاك : كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة ﴿يُفسـدون فـي الأرض ولا يُصلحـون﴾ أي شأنهـم الإفساد ، وإيذاء العباد بكل طريق ووسيلة قال ابن عباس :

(١) القرطبي ١٣/ ٢٢١ .

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾

وهم الذين عقروا الناقة ﴿قالوا تقاسموا بالله﴾ أي قال بعضُهم لبعض : احلفوا بالله ﴿لنُبيتنَّه وأهله﴾ أي لنقتلنَّ صالحاً وأهله ليلاً ﴿ثم لنقولنَّ لوليّه ما شهدنا مهْلِك أهله﴾ أي ثم نقول لوليّ دمه ما حضرنا مكان هلاكه ولا عرفنا قاتله ولا قاتل أهله ﴿وإنا لصادقون﴾ أي ونحلف لهم إنا لصادقون قال ابن عباس : أتوا دار صالح شاهرين سيوفهم ، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم[1] قال تعالى ﴿ومكروا مكراً﴾ أي دبَّروا مكيدةً لقتل صالح ﴿ومكرنا مكراً﴾ أي جازيناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم ، سمَّاه مكراً بطريق المشاكلة[2] ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي من حيث لا يدرون ولا يعلمون قال أبو حيان : ومكرُهم ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله ، ومكرُ الله إهلاكُهم من حيث لا يشعرون[3] ﴿فانظرْ كيف كان عاقبةُ مكرهم أنَّا دمَّرناهم وقومَهم أجمعين﴾ أي فتأملْ وتفكرْ في عاقبة أمرهم ونتيجة كيدهم ،كيف أنَّا أهلكناهم أجمعين وكان مآلهم الخراب والدمار ! ﴿فتلك بيوتُهم خاويةً بما ظلموا﴾ أي فتلك مساكنهم ودورهم خاليةً بسبب ظلمهم وكفرهم لأن أهلها هلكوا ﴿إنَّ في ذلك لآيةً لقوم يعلمون﴾ أي إن في هذا التدمير العجيب لعبرة عظيمة لقوم يعلمون قدرة الله فيتعظون ﴿وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي وأنجينا من العذاب المؤمنين المتقين الذين آمنوا مع صالح ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ أي واذكر رسولنا « لوطاً » حين قال لقومه أهل سدوم ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي أتفعلون الفعلة القبيحة الشنيعة وهي اللواطة ﴿وأنتم تُبصرون﴾ أي وأنتم تعلمون علماً يقيناً أنها فاحشة وأنها عملٌ قبيح ؟ ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء﴾ تكريرٌ للتوبيخ أي أئنكم أيها القوم لفرط سفهكم تشتهون الرجال وتتركون النساء ؟ ويكتفي الرجال بالرجال بطريق الفاحشة القبيحة ﴿بل أنتم قومٌ تجْهلون﴾ أي بل أنتم قوم سفهاء ماجنون ولذلك تفضلون العمل الشنيع على ما أباح الله لكم من النساء ﴿فما كانَ جوابَ قومه إلاَّ أن قالوا أخرجوا آلَ لوطٍ من قريتكم﴾ أي فما كان جواب أولئك المجرمين إلا أن قالوا أخرجوا لوطاً وأهله من بلدتكم ﴿إنَّهم أناسٌ يتطهَّرون﴾ أي إنهم

(١) زاد المسير ٦/ ١٨٢ . (٢) المشاكلة هي الاتفاق في اللفظ دون المعنى . (٣) البحر ٧/ ٨٥ .

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾

قوم يتنزهون عن القاذورات ويعدّون فعلنا قذراً ، وهو تعليلٌ لوجوب الطرد والإخراج قال قتادة : عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء وقال ابن عباس : هو استهزاء يستهزئون بهم بأنهم يتطهرون عن أدبار الرجال[١] ﴿فأنجيناه وأهلَه إلا امرأته﴾ أي فخلصناه هو وأهله من العذاب الواقع بالقوم إلا زوجته ﴿قدّرْناها من الغابرين﴾ أي جعلناها بقضائنا وتقديرنا من المهلكين ، الباقين في العذاب ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السماء كالمطر فأهلكتْهم ﴿فساءَ مطرُ المُنذَرين﴾ أي بئس هذا العذاب الذي أُمطروا به وهو الحجارة من سجيلٍ منضود ، ولما ذكر تعالى قصص الأنبياء أتبعه بذكر دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿قلْ الحمدُ للّهِ وسلامٌ على عبادهِ الّذين اصْطفى﴾ أي قل يا محمد الحمدُ للهِ على إفضاله وإنعامه ، وسلامٌ على عباده المرسلين الذين اصطفاهم لرسالته ، واختارهم لتبليغ دعوته قال الزمخشري : أمر الله رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الدالة على وحدانيته ، الناطقة بالبراهين على قدرته وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه ، وفيه تعليمٌ حسن ، وتوقيفٌ على أدبٍ جميل ، وهو حمد الله والصلاة على رسله ، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسوله أمام كل علم ، وقبل كل عظة وتذكرة[٢] ﴿ءآللّه خيرٌ أمّا يُشركون﴾ تبكيتٌ للمشركين وتهكمٌ بهم أي هل الخالق المبدع الحكيم خيرٌ أم الأصنام التي عبدوها وهي لا تسمع ولا تستجيب ؟ ﴿أمَّن خلق السموات والأرض﴾ برهان آخر على وحدانية الله أي أمَّن أبدع الكائنات فخلق تلك السمواتِ في ارتفاعها وصفائها ، وجعل فيها الكواكب المنيرة ، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والسهول والأنهار والبحار ، خيرٌ أمّا يشركون ؟ ﴿وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذاتَ بهجة﴾ أي وأنزل لكم بقدرته المطر من السحاب فأخرج به الحدائق والبساتين ، ذات الجمال والخضرة والنضرة ، والمنظر الحسنِ البهيج ﴿ما كانَ لكم أن تُنْبتوا شجَرها﴾ أي ما كان للبشر ولا يتهيأ لهم ، وليس بمقدورهم ومستطاعهم أن يُنبتوا شجرها فضلاً عن ثمرها ﴿أإلهٌ مع الله﴾ استفهام إنكار أي هل معه معبود سواه حتى تسوّوا بينهما وهو المتفرد بالخلق والتكوين ؟ ﴿بل هم قومٌ يعدلون﴾ أي بل هم قوم يشركون بالله فيجعلون له عديلاً ومثيلاً ، ويسوّون بين الخالق الرازق والوثن ﴿أمَّن جعل الأرض قراراً﴾ برهان آخر أي جعل الأرض مستقَراً للإنسان والحيوان ، بحيث

(١) القرطبي ١٣/ ٢١٩ . (٢) الكشاف ٣/ ٢٩٥ .

حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

يمكنكم الإقامة بها والاستقرار عليها ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي وجعل في شعابها وأوديتها الأنهار العذبة الطيبة ، تسير خلالها شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ﴿وجعل لها رواسي﴾ أي وجعل جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد وتضطرب بكم ﴿وجعل بين البحرين حاجزاً﴾ أي وجعل بين المياه العذبة والمالحة فاصلاً ومانعاً يمنعها من الاختلاط ، لئلا يُفسد ماء البحار المياهَ العذبة[1] ﴿أإلـهٌ مع الله﴾ أي أمع الله معبودٌ سواه ؟ ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي أكثر المشركين لا يعلمون الحق فيشركون مع الله غيره ﴿أمَّن يجيبُ المُضطرَّ إذا دعاه﴾ برهانٌ ثالث أي أمَّن يجيب المكروب المجهود الذي مسَّه الضر فيستجيب دعاءه ويلبي نداءه ؟ ﴿ويكشف السوء﴾ أي ويكشف عنه الضُرَّ والبأساء ؟ ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي ويجعلكم سكان الأرض تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وأُمةً بعد أُمة ﴿أإلـهٌ مع الله﴾ ؟ أي أإلـه مع الله يفعل ذلك حتى تعبدوه ؟ ﴿قليلاً ما تذكَّرون﴾ أي ما أقلَّ تذكركم واعتباركم فيما تشاهدون ؟ ﴿أمْ من يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ ؟ برهان رابع أي أم من يرشدكم إلى مقاصدكم في أسفاركم في الظلام الدامس ، في البراري ، والقفار ، والبحار ؟ والبلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار ؟ ﴿ومنْ يرسلُ الرياح بُشْراً بين يدي رحمته﴾ ؟ أي ومن الذي يسوق الرياح مبشرةً بنزول المطر الذي هو رحمة للبلاد والعباد ؟ ﴿أإلـه مع الله﴾ ؟ أي أإلهٌ مع الله يقدر على شيءٍ من ذلك ؟ ﴿تعالى الله عمَّا يشركون﴾ أي تعظَّم وتمجَّد الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق ﴿أمَّن يبدأ الخلق ثم يُعيده﴾ برهانٌ خامس أي أمَّنْ يبدأ خلق الإنسان ثم يعيده بعد فنائه ؟ قال الزمخشري : كيف قال لهم ذلك وهم منكرون للإعادة ؟ والجواب أنه قد أُزيحت علَّتهم بالتمكين من المعرفة والإقرار ، فلم يبق لهم عذرٌ في الإنكار[2] ﴿ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي ومن يُنزل عليكم من مطر السماء ، ويُنبتُ لكم من بركات الأرض الزروع والثمار ؟ قال أبو حيان : لما كان إيجاد بني آدم إنعاماً إليهم وإحساناً عليهم ، ولا تتم النعمة إلا بالرزق قال ﴿ومن يرزقكم من السماء﴾ أي بالمطر ﴿والأرض﴾ أي بالنبات[3] ﴿أإلـه مع الله﴾ ؟ أي أإلـه مع الله يفعل ذلك ؟ ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي أحضروا حجتكم ودليلكم على ما تزعمون إن كنتم صادقين في أنَّ مع

(١) هذا قول الحسن واختاره ابن كثير وهو الأظهر وقيل : المراد بحر فارس والروم .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٧ . (٣) البحر ٧/ ٩٠ .

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

الله إلهاً آخر[1] ﴿قـل لا يعلـم من فـي السمـواتِ والأرضِ الغيـب إلا اللـهُ﴾ أي هو سبحانـه وحـده المختص بعلم الغيب ، فلا يعلم أحدٌ من ملك أو بشر الغيب إلا اللهُ علامُ الغيوب قال القرطبي : نزلت في المشركين حين سألوا النبيﷺ عن قيام الساعة ﴿وما يشعـرون أيّـان يُبعثـون﴾ ؟ أي وما يدري ولا يشعر الخلائق متى يُبعثون بعد موتهم؟ ﴿بل ادَّارك عِلْمُهُـم في الآخـرة﴾ أي هل تتابـع وتلاحـق علـمُ المشركين بالآخرة وأحوالها حتى يسألوا عن الساعة وقيامها ؟ إنهم لا يصدقون بالآخرة فلماذا يسألون عن قيام الساعة ؟ ﴿بـل هـم فـي شـكٍ منهـا﴾ إضراب عن السابق أي هم شاكون في الآخرة لا يصدّقون بها ولذلك يعاندون ويكابرون ﴿بـل هـم منهـا عمـون﴾ أي بل هم في عمَىً عنهـا ، ليس لهـم بصـيرةٌ يدركون بها دلائل وقوعها لأن اشتغالهم باللذات النفسانية من شهوة البطن والفرج صيّرهـم كالبهائـم والأنعام لا يتدبرون ولا يبصرون قال ابن كثير : هم شاكون في وقوعها ووجودهـا ، بل هم في عماية وجهلٍ كبير في أمرها .

البَـــلاَغَـــة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق ﴿يفسدون . . ولا يصلحون﴾ .

٢ ـ التحضيض ﴿لولا تستغفرون الله﴾ أي هلاّ تستغفرون الله .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿اطيَّرنا . . طائركـم﴾ .

٤ ـ المشاكلة ﴿ومكروا . . ومكرنا﴾ سمَّى تعالى إهلاكهم وتدميرهم مكراً على سبيل المشاكلة .

٥ ـ الطباق ﴿لـم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾ ؟

٦ ـ الاستفهام التوبيخي ﴿أتأتـون الفاحشة وأنتـم تبصرون﴾ ؟

٧ ـ أسلوب التبكيت والتهكم ﴿آللهُ خيرٌ أمَّـا يشركون﴾ ؟

٨ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿بين يدي رحمته﴾ أي أمام نزول المطر فاستعار اليدين للأمام .

(١) قال في البحر : وناسب ختم كل استفهام بما تقدمه ، فلما ذكر خلق العالم العلوي والسفلي وما امتنَّ به من إنزال المطر ختمه بقوله﴿بـل هم قوم يعدلون﴾ أي يعدلون به غيره مما هو مخلوق ، ولما ذكر جعل الأرض مستقراً وتفجير الأنهار ، وكان فيه التنبيه على الكفر والتعقل ختمه بقوله ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ولما ذكر إجابة المضطر وكشف السوء ختمه بقوله ﴿قليـلاً ما تذكرون﴾ لأن الإنسان يتوالى عليه النسيان عندما يزول عنه اضطراره ، ولما ذكر الهداية في الظلمات وإرسال الرياح مبشرات ، ومعبوداتهم لا تهدي ولا تسعف وهم يشركون بها ختمه بقوله ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ البحر ٧/ ٩١ .

٩ ـ الطباق ﴿يبدأ الخلق ثم يُعيده﴾ .

١٠ـ الاستعارة ﴿بل هم منها عمون﴾ استعار العمى للتعامي عن الحق وعدم التفكر والتدبر في آلاء الله .

١١ـ مراعاة الفواصل مما يزيد في رونق الكلام وجماله ، وله على السمع وقع خاص مثل ﴿وما يشعرون أيان يُبعثون﴾ ﴿ أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً﴾ ومثل ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعلمون* وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ . وأمثاله كثير ، وفي القرآن روائع بيانية يعجز عن التعبير عنها اللسان ،فسبحان من خصَّ نبيَّه الأمي بهذا الكتاب المعجز ! !

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا . . إلى . . وما ربك بغافل عما تعملون﴾ من آية (٦٧) إلى آية (٩٣) نهاية السورة .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، ذكر هنا شبهات المشركين في الإيمان بالآخرة والبعث والنشور ، وأردفها بذكر الدلائل القاطعة ، وذكر بعض الأهوال التي تكون بين يدي الساعة .

اللغَة : ﴿ردِف﴾ اقترب ودنا ﴿تكنُّ﴾ تُسِرُّ وتخفي ﴿داخرين﴾ ذليلين صاغرين ﴿فوجاً﴾ الفوج : الجماعة ﴿جامدة﴾ الجمود : سكون الشيء وعدم حركته ﴿أتقن﴾ الإتقان : الإتيانُ بالشيء على أحسن حالاته من التمام والكمال والإحكام ﴿كُبَّت﴾ الكبُّ : الطرح والإلقاء يقال : كببتُ الرجل ألقيتُه على وجهه ، وكببتُ الإناء قلبتُه .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾

التفسِير : ﴿وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون﴾ أي قال مشركو مكة المنكرون للبعث : أئذا متنا وأصبحنا رفاتاً وعظاماً بالية ،فهل سنخرج من قبورنا ونحيا مرة ثانية ؟ ﴿لقد وُعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل﴾ أي لقد وَعدنا محمدٌ بالبعث كما وعَدَ من قبله آباءنا الأولين ، فلو كان حقاً لحصل ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما هذا إلا خرافات وأباطيل السابقين. ينكرون البعث وينسون أنهم خُلقوا من العدم ، وأن الذي خلقهم أولاً قادر على أن يعيدهم ثانياً ! ﴿قل سيروا في الأرض﴾ أي قل لهؤلاء الكفار : سيروا في أرجاء الأرض ﴿فانظروا كيف كان عاقبةُ المجرمين﴾ أي فانظروا ـ نظر اعتبار ـ كيف كان مآل المكذبين للرسل ؟ ألم يهلكهم الله ويدمّرهم ؟ فما حدث للمجرمين

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝٧٠ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٧١ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٤ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٧٥ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٧٨﴾

من قبل ، يحدث للمجرمين من بعد ، والآيةُ وعيدٌ وتهديد ﴿ولا تحزن عليهم ولا تكنْ في ضيقٍ مما يمكرون﴾ تسلية للرسول عليه السلام أي لا تحزن يا محمد ولا تأسف على هؤلاء المكذبين إنْ لم يؤمنوا ، ولا يضقْ صدرك من مكرهم فإن الله يعصمك منهم ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي يقولون استهزاءً : متى يجيئنا العذاب إن كنتم صادقين فيما تقولون ؟ والخطابُ للنبي ﷺ والمؤمنين ﴿قل عسى أن يكون ردف لكم بعضُ الذي تستعجلون﴾ أي لعلَّ الذي تستعجلون به من العذاب قد دنا وقرُب منكم بعضه قال المفسرون : هو ما أصابهم من القتل والأسر يوم بدر ﴿وإن ربَّك لذو فضلٍ على الناس﴾ أي لذو إفضالٍ وإنعامٍ على الناس بترك تعجيل عقوبتهم على معاصيهم وكفرهم ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يشكرون﴾ أي ولكنَّ أكثرهم لا يعرفون حقَّ النعمة ، ولا يشكرون ربهم ﴿وإنَّ ربك ليعلم ما تُكنُّ صدورهم وما يعلنون﴾ أي وإنه تعالى ليعلم مايُخفون وما يعلنون من عداوة الرسول وكيدهم له وسيجازيهم عليه ﴿وما من غائبةٍ في السماء والأرض إلا في كتابٍ مبين﴾ أي ليس من شيء في غاية الخفاء على الناس والغيبوبة عنهم إلا وقد علمه الله وأحاط به ، وأثبته في اللوح المحفوظ عنده ، فلا تخفى عليه سبحانه خافية قال ابن عباس : معناه ما من شيءٍ سرٍّ في السموات والأرض أو علانية إلا وعند الله علمه[1] ﴿إنَّ هذا القرآن يقصُّ على بني إسرائيل أكثرَ الذي هم فيه يختلفون﴾ لما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد والنبوة ، وكان القرآن من أعظم الدلائل والبراهين على صدق محمد وصدق ما جاء به ، أعقبه هنا بذكر القرآن المجيد وذكر أوصافه والمعنى : إن هذا القرآن المنزَّل على خاتم الرسل لهو الكتاب الحق الذي يبين لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من أمر الدين ، ومن جملته اختلافهم في أمر المسيح وتفرقُهم فيه فرقاً كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً، فلو كانوا منصفين لأسلموا، لأن القرآن جاءهم بالرأي الساطع ، والخبر القاطع ﴿وإنه لهدىً ورحمةٌ للمؤمنين﴾ أي وإنه لهداية لقلوب المؤمنين من الضلالة ، ورحمة لهم من العذاب ، قال القرطبي : وإنما خصَّ المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به[2] ﴿إنَّ ربَّك يقضي بينهم بحكمه﴾ أي إن ربك يا محمد يفصل بين بني إسرائيل يوم القيامة بحكمه العادل ، وقضائه المبرم ، فيجازي المحقَّ والمبطل ﴿وهو العزيز﴾ أي المنيع الغالب الذي لا يُردُّ أمره ﴿العليم﴾ أي العليم

(١) البحر ٧/ ٩٥ . (٢) القرطبي ١٣/ ٢٣١ .

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

بأفعال العباد فلا يخفى عليه شيء منهم ﴿فتوكَّلْ على الله﴾ أي فوِّضْ إليه أمرك ، واعتمد عليه في جميع شئونك فإنه ناصرك ﴿إنك على الحق المبين﴾ أي إنك يا محمد على الدين الحق ، الواضح المنير ، فالعاقبة لك بالنصر على الكفار ﴿إنك لا تُسمع الموتى﴾ أي لا تُسمع الكفار لتركهم التدبر والاعتبار ، فهم كالموتى لا حسٌّ لهم ولا عقل ﴿ولا تُسْمع الصُّمَّ الدعاء إذا ولَّوا مدبرين﴾ أي ولا تُسمعهم دعاءك ونداءك إذا ذكَّرتهم بالله أو دعوتهم إلى الإيمان ، لأنهم كالصُّم الذين في آذانهم وقرٌ ، فلا يستجيبون الدعاء ، لا سيما إذا تولَّوا عنك معرضين ، فإن الأصمَّ إذا تولى مدبراً ثم ناديته كان أبعد عن السماع حيث انضمَّ إلى صممه بُعدُ المسافة ﴿وما أنتَ بهادي العُمْي عن ضلالتهم﴾ أي وليس بوسعك يا محمد أن تصرف عُمي القلوب عن كفرهم وضلالهم ﴿إنْ تُسمعُ إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي ما تُسمع - سماع تدبر وإفهام - إلا المؤمنين ، ولا يستجيب لدعوتك إلاَّ أهل الإيمان ، وهم الذين انقادوا وأسلموا وجوههم للرحمن . .شبَّه من لا يسمع ولا يعقل بالموتى في أنهم لا يسمعون وإن كانوا أحياء ، ثم شبههم ثانياً بالصم وبالعُمي وإن كانوا سليمي الحواس ، وأكَّد عدم سماعهم بقوله ﴿إذا ولَّوْا مدبرين﴾ لأن الأصمَّ إذا أدبر زاد صممُه أو عُدم سماعُه بالكلية ، والغرضُ من الآية أنَّ هؤلاء الكفار كالموتى ، وكالصُّمّ ، وكالعُمي ، لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ، ولا يلتفتون إلى شيء من الدلائل الكونية ، أو الآيات القرآنية ﴿وإذا وقَع القوْلُ عليهم﴾ هذا بيان لما يكون بين يدي الساعة أي وإذا قَرُبَ نزولُ العذاب وقيام الساعة ، وحان وقت عذاب الكفار ﴿أخرجنا لهم دابةً من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ أي أخرجنا للكفار هذه الآية الكبيرة «دابة الأرض» تكلم الناس وتناظرهم وتقول من جملة كلامها : ألا لعنةُ الله على الظالمين ،الذين لا يصدّقون ولا يؤمنون بآيات الله ، وخروجُ الدابة من أشراط الساعة وفي الحديث (لا تقوم الساعةُ حتى تروا عشر آياتٍ . . وعدَّ منها طلوع الشمس من مغربها ، وخروجَ الدابة . .)[1] الحديث قال ابن كثير : هذه الدابة تخرج في آخر الزمان ، عند فساد الناس وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، فتكلم الناس وتخاطبهم مخاطبة قال ابن عباس وعطاء : تكلمهم كلاماً فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون[2] ، وروي أن خروجها حين ينقطع الخير ، ولا يُؤمر بمعروف ولا يُنهى عن منكر ، ولا يبقى منيبٌ ولا تائب ، وهي آية خاصة

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، وفي صحيح مسلم (إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً) .

(٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٨٢ .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾

خارقة للعادة ، ثم ذكر تعالى بعض مشاهد القيامة فقال ﴿ويوم نحشر من كل أمةٍ فوجاً﴾ أي واذكر يوم نجمع للحساب والعقاب من كل أمةٍ من الأمم جماعة وزمرة ﴿ممن يكذِّب بآياتنا﴾ أي من الجاحدين المكذبين بآياتنا ورسلنا ﴿فهم يُوزعون﴾ أي فهم يجْمعون ثم يُساقون بعنف ﴿حتى إذا جاءوا قال أكذَّبتم بآياتي ولم تُحيطوا بها علماً﴾ أي حتى إذا حضروا موقف الحساب والسؤال قال لهم تعالى مُوبخاً ومقرِّعاً : أكذبتم بآياتي المنزلة على رسلي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها ، أو معرفة صدقها ؟ ﴿أمَّاذا كنتم تعملون﴾ تقريع وتوبيخ آخر أيْ أيَّ شيء كنتم تعملون في الدنيا ؟ وبَّخهم أولاً بقوله ﴿أكذبتم بآياتي﴾ ثم اضرب عنه إلى استفهام تقرير وتبكيت كأنه قيل : دعُوا ما نسبتُه إليكم من التكذيب وقولوا لي : أيَّ شيءٍ كنتم تعملونه في الدنيا غير التكذيب ؟ ﴿ووقعَ القوْلُ عليهم بما ظلموا﴾ أي بُهتوا فلم يكن لهم جواب ، وقامت عليهم الحجة وحقَّ عليهم العذاب ، بسبب ظلمهم وهو تكذيبهم بآيات الله ﴿فهم لا ينطقون﴾ أي فهم لا يتكلمون لأنه ليس لهم عذر ولا حجة ، وقد شُغلوا بالعذاب عن الجواب . . ثم لما ذكر تعالى أهوال القيامة ذكر الأدلة والبراهين على التوحيد والحشر والنشر مبالغةً في الإرشاد إلى الإيمان فقال : ﴿ألم يَروْا أنَّا جعلنا الليلَ ليسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ ؟ أي ألم يروا قدرة الله فيعتبروا أنه تعالى جعل الليل مظلماً ليناموا ويستريحوا من تعب الحياة ، وجعل النهار منيراً مشرقاً ليتصرفوا فيه في طلب المعاش والرزق ؟ ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾ أي إن في تقليب الليل والنهار من نور إلى ظلمة ، ومن ظلمةٍ إلى نور لآيات باهرة ، ودلائل قاطعة على قدرة الله لقومٍ يصدِّقون فيعتبرون ، ثم أشار تعالى إلى أحوال الناس في الآخرة فقال ﴿ويوم يُنفخ في الصور ففزع من في السمواتِ والأرض إلاّ من شاء الله﴾ أي واذكر يوم ينفخ إسرافيل في الصور « نفخة الفزع » فلا يبقى أحدٌ من أهل السمواتِ والأرض إلا خاف وفزع إلا من شاء الله من الملائكة والأنبياء والشهداء قال المفسرون : هذه نفخة الفزع ، ثم تتلوها نفخة الصَّعق ـ وهو الموت ـ ثم بعد ذلك نفخة النشور من القبور وهي نفخة القيام لرب العالمين ، قال أبو هريرة : إن الملك له في الصور ثلاثُ نفخات : نفخةُ الفزع ـ وهو فزع الحياة الدنيا ـ وليس بالفزع الأكبر ، ونفخة الصَّعْق ، ونفخة القيام من القبور[1] ﴿وكلٌّ أتوْه داخرين﴾ أي وكلٌّ من الأموات الذين أُحيوا أتَوْا ربَّهم صاغرين مطيعين لم

(١) البحر ٧/ ٩٩ .

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ

يتخلف منهم أحد ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ أي وترى أيها المخاطب الجبال وقت النفخة الأولى تظنها ثابتة في مكانها وواقفة ﴿وهي تمرُّ مرَّ السحاب﴾ أي وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب قال الإمام الفخر : ووجه حسبانهم أنها جامدة أن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهجٍ واحد ظنَّ الناظر إليها أنها واقفة مع أنها تمر مراً سريعاً[1] ﴿صُنعَ اللَّهِ الذي أتقنَ كل شيء﴾ أي ذلك صنعُ الله البديع ، الذي أحكم كل شيء خلقه ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿إنه خبيرٌ بما تفعلون﴾ أي هو عليم بما يفعل العباد من خير وشر ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء . . ثم بيَّن تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم الرهيب فقال ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنةٍ من الحسنات ، فإن الله يضاعفها له إلى عشر حسنات ، ويعطيه بالعمل القليل الثواب الأبدي ﴿وهم من فزعٍ يومئذٍ آمنون﴾ أي وهم من خوف ذلك اليوم العصيب آمنون كما قال تعالى ﴿لا يحزنهم الفزعُ الأكبر﴾ ﴿ومن جاء بالسيئة فكُبَّتْ وجوههم في النار﴾ قال ابن عباس : السيئة : الإشراك بالله أي ومن جاء يوم القيامة مسيئاً لا حسنة له أو مشركاً بالله فإنه يكبُّ في جهنم على وجهه منكوساً ، ويُلقى فيها مقلوباً ﴿هل تُجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ أي يقال لهم توبيخاً : هل تُجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من سيء الأعمال ؟ ﴿إنما أُمرتُ أن أعبد ربَّ هذه البلدة الذي حرَّمها﴾ أي قل لهم يا محمد : لقد أُمرت أن أخصَّ الله وحده بالعبادة ربَّ البلد الأمين الذي جعل مكة حرماً آمناً لا يُسفك فيها دم ، ولا يُظلم فيها أحد ، ولا يصاد صيدها ولا يُختلى خلاها[2] كما جاء في الحديث الصحيح ﴿وله كل شيء﴾ أي هو تعالى الخالق والمالك لكل شيء فهو رب كل شيء ومليكه ﴿وأُمرتُ أن أكون من المسلمين﴾ أي وأُمرت أن أكون من المخلصين لله بالتوحيد ، المنقادين لأمره ، المستسلمين لحكمه ﴿وأن أتلوا القرآن﴾ أي وأُمرتُ أيضاً بتلاوة القرآن لتتكشف لي حقائقه الرائعة ، وأن أقرأه على الناس ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ أي فمن اهتدى بالقرآن ، واستنار قلبه بالإيمان ، فإن ثمرة هدايته راجعة إليه ﴿ومن ضلَّ فقل إنما أنا من المُنذرين﴾ أي ومن ضلَّ عن طريق الهدى ،فوبالُ ضلاله مختص به ، إذْ ما على الرسول إلا البلاغ وقد بلغتكم رسالة الله ﴿وقل الحمد لله﴾ أي قل يا محمد : الحمد لله على ما خصني

(١) التفسير الكبير ٢٤/ ٣٤ . (٢) لا يختلى خلاها : أي لا يقطع حشيشها الرطب .

فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

به من شرف النبوة والرسالة ، وما أكرمني من رفيع المنزلة والمقام ﴿سيريكم آياته فتعرفونها﴾ تهديد ووعيد أي سيريكم آياته الباهرة الدالة على عظيم قدرته وسلطانه في الأنفس والآفاق فتعرفونها حين لا تنفعكم المعرفة ﴿وما ربك بغافلٍ عما تعملون﴾ أي وما ربك بغافل عن أعمال العباد بل هو على كل شيء شهيد ، وفيه وعدٌ ووعيد .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام الإنكاري ﴿أئذا كنا تراباً أئنا لمخرجون﴾ وتكرير الهمزة ﴿أئنا﴾ للمبالغة في التعجب والإنكار .

٢ ـ الوعيد والتهديد ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ .

٣ ـ التأكيد بإن واللام ﴿وإن ربك لذو فضل﴾ ﴿وإن ربك ليعلم﴾ ﴿وإنه لهدى﴾ .

٤ ـ الطباق ﴿ما تُكِنُّ صدورهم وما يعلنون﴾ لأن معنى ﴿تكنُّ﴾ تخفي .

٥ ـ الاستعارة البديعة ﴿إن هذا القرآن يقصُّ﴾ لأن القصص لا يوصف به إلا الناطق المميز ، ولكنَّ القرآن لما تضمَّن نبأ الأولين، كان كالشخص الذي يقصُّ على الناس الأخبار ففيه استعارةٌ تبعية.

٦ ـ المبالغة ﴿العزيز العليم﴾ لأن صيغة فعيل من صيغ المبالغة .

٧ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ التعبير بالموتى ، والصم ، والعمي ، جاء كله بطريق الاستعارة ، وهو تمثيل لأحوال الكفار في عدم انتفاعهم بالايمان بأنهم كالموتى والصم والعمي .

٨ ـ أسلوب التوبيخ والتأنيب ﴿أمَّاذا كنتم تعملون﴾ ؟

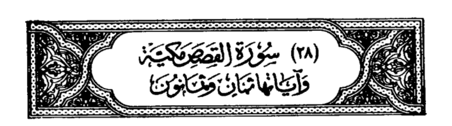
٩ ـ الطباق ﴿من جاء بالحسنة . . ومن جاء بالسيئة﴾ .

١٠ ـ التشبيه البليغ ﴿وهي تمر مرَّ السحاب﴾ أي تمرُّ كمرِّ السحاب في السرعة ، حذفت الأداة ووجه الشبه فأصبح تشبيهاً بليغاً مثل محمد قمر .

١١ ـ الإحتباك ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ حُذف من أوله ما أُثبت في آخره وبالعكس ،أصله جعلنا الليل مظلماً لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً لتتصرفوا فيه فحذف « مظلماً » لدلالة « مبصراً » عليه ، وحذف « لتتصرفوا فيه » لدلالة ﴿ليسكنوا فيه﴾ وهذا النوع يسمى الإحتباك وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النمل »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة القصص من السور المكية التي تهتم بجانب العقيدة « التوحيد ، والرسالة ، والبعث » وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتي « النمل ، والشعراء » كما اتفقت في جو النزول ، فهي تكمِّل أو تُفصِّل ما أجمل في السورتين قبلها .

* محور السورة الكريمة يدور حول فكرة الحق والباطل ، ومنطق الإذعان والطغيان ، وتصور قصة الصراع بين جند الرحمن ، وجند الشيطان ، وقد ساقت في سبيل ذلك قصتين : أولاهما قصة الطغيان بالحكم والسلطان ، ممثلة في قصة فرعون الطاغية المتجبر الذي أذاق بني إسرائيل سوء العذاب ، فذبح الأبناء ، واستحيا النساء ، وتعالى على الله حتى تجرأ على ادعاء الربوبية ﴿ما علمتُ لكم من إلـهٍ غيري﴾ والثانية : قصة الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال ممثلة في « قارون مع قومه » وكلا القصتين رمزٌ إلى طغيان الإنسان في هذه الحياة ، سواءً بالمال ، أو الجاه ، أو السلطان .

* ابتدأت السورة بالحديث عن طغيان فرعون وعلوه وفساده في الأرض ، ومنطق الطغيان في كل زمان ومكان .

* ثم انتقلت إلى الحديث عن ولادة موسى وخوف أُمه عليه من بطش فرعون ، وإلهام الله تعالى لها بإلقائه في البحر ليعيش معززاً مكرماً في حجر فرعون كريحانةٍ زكية تنبتُ وسط الأشواك والأوحال .

* ثم تحدثت عن بلوغ موسى سن الرشد ، وعن قتله للقبطي ، وعن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب ، وتكليف الله له بالعودة إلى مصر لدعوة فرعون الطاغية إلى الله ، وما كان من أمر موسى مع فرعون بالتفصيل إلى أن أغرقه الله ، وتحدثت عن كفار مكة ووقوفهم في وجه الرسالة المحمدية ، وبيَّنت أن مسلك أهل الضلال واحد .

* ثم انتقلت إلى الحديث عن قصة قارون ، وبينت الفارق العظيم بين منطق الإيمان ، ومنطق الطغيان .

* وختمت السورة الكريمة بالإرشاد إلى طريق السعادة وهو طريق الإيمان الذي دعى إليه الرسل الكرام .

التسمية : سميت سورة « القصص » لأن الله تعالى ذكر فيها قصة موسى مفصلة موضحة من

حين ولادته الى حين رسالته ، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة ما يتجلى فيه بوضوح عناية الله بأوليائه وخذلانه لأعدائه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ

اللغــة : ﴿شيعاً﴾ فِرقاً وأصنافاً ﴿يستحيي﴾ يتركه حياً ولا يقتلـه ﴿نمن﴾ نتفضـل وننعم ﴿اليمّ﴾ البحر ﴿فارغاً﴾ خالياً ﴿المراضع﴾ جمع مُرضِع ، وأما المرضعة فجمعها مرضعـات وهـي التي ترضع الطفل اللبن ﴿عن جُنُب﴾ عن بعد ومنه الأجنبي للبعيد غير القريب ﴿وكزه﴾ الـوكز : الضرب بجُمْع الكف أي بكفه مجموعةً قال أهل اللغة : الوكزُ واللكز كلاهما بمعنى واحد وهو الضرب بجمـع الكفّ على الصدر ، وقيل : الوكز في الصدر ، واللكزُ في الظهر ، وجمـع الـكف : الـكف المقبوضـةُ الأصابع[١] ﴿ظهيراً﴾ عوناً ﴿يستصرخه﴾ يستغيثه والاستصراخ الاستغاثة وهو من الصراخ لأن المستغيث يصرخ ويرفع صوته طلباً للغوث قال الشاعر :

كنـا إذا ما أتانـا صارخ فزعٌ كان الصـراخ له قرع الظنابيب[٢]

﴿يبطش﴾ البطش : الأخذ بالشدة والعنف ، بطش ويبطش ويبطش بالكسر والضم .

التفسـير : ﴿طَسم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم ، والإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه مركبٌ من أمثال هذه الحروف الهجائية[٣] ﴿تلك آيـات الكتاب المبيـن﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي ، الظاهر في إعجازه ، الواضح في تشريعه وأحكامه ﴿نتلواعليك من نبأ موسى وفرعـو ن بالحق﴾ أي نقرأ عليك يا محمد بواسطة الروح الأمين من الأخبار الهامة عن موسى وفرعون من الحق الذي لا يأتيه الباطل، والصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب ﴿لقوم يؤمنو ن﴾ أي لقوم يصدقون بالقرآن فينتفعون . . ثم بدأ بذكر قصة فرعون الطاغية فقال ﴿إنّ فرعو ن عـلا في الأرض﴾ أي استكبر وتجبَّر ، وجاوز الحد في الطغيان في أرض مصر ﴿وجعـل أهلها شيعاً﴾ أي جعل أهلها فرقـاً وأصنافـاً في استخدامه وطاعته ﴿يستضعف طائفـةً منهم﴾ أي يستعبد ويستذل فريقاً منهم وهم بنو إسرائيل فيسومهم سوء العذاب ﴿يذبح أبناءهم ويستحيـي نساءهم﴾ أي يقتّل أبناءهم الذكور ويترك الإناث على قيد الحياة لخدمته وخدمة الأقباط قال المفسرو ن : سبب تقتيله الذكور أن فرعون رأى في منامه أن ناراً عظيمةً أقبلت من بيت المقـدس وجـاءت إلى أرض مصر فأحرقت القبـط دون بنـي إسرائيل ، فســأل عن ذلك المنجّمين والكهنـة، فقالـوا له: إن مولـوداً يولـد في بنـي إسرائيل، يذهـب ملكك على يديه، ويكون هلاكك بسببه فأمر أن يقتل كل ذكر من أولاد بني اسرائيل ﴿إنه كان من المفسـدين﴾ أي من الراسخين في

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٥٠٧. (٢) القرطبي ١٣/ ٢٦٤. (٣) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة حول أوائل السور .

مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾

الفساد ، المتجبرين في الأرض ، ولذلك ادعى الربوبية وأمعن في القتل وإذلال العباد **﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استُضعِفوا في الأرض﴾** أي ونريد برحمتنا أن نتفضل وننعم على المستضعفين من بني إسرائيل فننجيهم من بأس فرعون وطغيانه **﴿ونجعلهم أئمة﴾** أي ونجعلهم أئمة يقتدى بهم في الخير بعد أن كانوا أذلاء مسخرين قال ابن عباس : **﴿أئمة﴾** قادة في الخير ، وقال قتادة : ولاةً وملوكاً **﴿ونجعلهم الوارثين﴾** أي ونجعل هؤلاء الضعفاء وارثين لملك فرعون وقومه ، يرثون ملكهم ويسكنون مساكنهم بعد أن كان القبط أسياد مصر وأعزتها **﴿ونمكن لهم في الأرض﴾** أي ونملكهم بلاد مصر والشام يتصرفون فيها كيف يشاءون قال البيضاوي : أصل التمكين أن تجعل للشيء مكاناً يتمكن فيه ثم استعيد للتسليط وإطلاق الأمر[1] **﴿ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾** أي ونري فرعون الطاغية ، ووزيره « هامان » والأقباط من أولئك المستضعفين ما كانوا يخافونه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولودٍ من بني إسرائيل **﴿وأوحينا إلى أمِّ موسى أن أرضعيه﴾** أي قذفنا في قلبها بواسطة الإلهام قال ابن عباس : هو وحيُ إلهام وقال مقاتل : أخبرها جبريل بذلك قال القرطبي : فعلى قول مقاتل هو وحيُ إعلام لا إلهام ، وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية ، وإنما إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى كما في الحديث المشهور ، وكذلك تكليم الملائكة للناس من غير نبوة ، وقد سلَّمت على « عمران بن حصين » فلم يكن نبياً[2] **﴿فإذا خفت عليه فألقيه في اليم﴾** أي فإذا خفت عليه من فرعون فاجعليه في صندوق وألقيه في البحر - بحر النيل - **﴿ولا تخافي ولا تحزني﴾** أي لا تخافي عليه الهلاك ولا تحزني لفراقه **﴿إنّا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾** أي فإنا سنرده إليك ونجعله رسولاً نرسله إلى هذا الطاغية لننجّي بني إسرائيل على يديه **﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾** أي فأخذه وأصابه أعوان فرعون لتكون عاقبة الأمر أن يصبح لهم عدواً ومصدر حزن وبلاءٍ وهلاكٍ قال القرطبي : اللام في « ليكون » لام العاقبة ولام الصيرورة ، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين ، فكان عاقبة ذلك أن صار لهم عدواً وحزناً ، فذكر الحال بالمآل كما قال الشاعر :

وللمنايا تُربِّي كلُّ مرضعةٍ ودورُنا لخراب الدهر نبْنيها[3]

﴿إنَّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ أي كانوا عاصين مشركين آثمين ، قال العلماء : الخاطىء

(١) البيضاوي ٨٨/٢ . (٢) القرطبي ٢٥٠/١٣ . (٣) القرطبي ٢٥٢/١٣ .

وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾
وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾
وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ
فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾

من تعمد الذنب والإثم ، والمخطىء من فعل الذنب عن غير تعمد ﴿وقالت امرأة فرعون قرة عينٍ لي ولك﴾ أي قالت زوجة فرعون لفرعون: هذا الغلام فرحة ومسرة لي ولك لعلنا نسر به فيكون قرة عين لنا قال الطبري : ذكر أن المرأة لما قالت هذا القول لفرعون قال لها : أمَّا لك فنعم ، وأما لي فليس بقرة عين[1] ، وقال ابن عباس : لو قال قرة عين لي لهداه الله به ولآمن ولكنه أبى ﴿لا تقتلوه﴾ أي لا تقتله يا فرعون ، خاطبته بلفظ الجمع كما يُخاطب الجبارون تعظيماً له ليساعدها فيما تريد ﴿عسى أن ينفعنا أو نتَّخذه ولداً﴾ عسى أن ينفعنا في الكبر، أو نتبناه فنجعله لنا ولداً تقرُّ به عيوننا قال المفسرون : وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها قال تعالى ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وزبانيته سيكون على يديه وبسببه ﴿وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً﴾ أي صار قلبها خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى[2] ، وقيل المعنى : طار عقلها من فرط الجزع والغم حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿إن كادت لتبدي به﴾ أي إنها كادت أن تكشف أمره وتظهر أنه ابنها من شدة الوجد والحزن قال ابن عباس : كادت تصيح وابناه ، وذلك حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ أي لولا أن ثبتناها وألهمناها الصبر ﴿لتكون من المؤمنين﴾ أي لتكون من المصدقين بوعد الله برده عليها ﴿وقالت لأخته قصّيه﴾ أي قالت أم موسى لأخت موسى : إتبعي أثره حتى تعلمي خبره قال مجاهد : قصي أثره وانظري ماذا يفعلون به ؟ ﴿فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾ أي فأبصرته عن بعد وهم لا يشعرون أنها أخته ، لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى وصل الصندوق إلى بيت فرعون وهي ترقبه مستخفيةً عنهم ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ أي ومنعنا موسى أن يقبل ثدي أي مرضعة من المرضعات اللاتي أحضروهن لإرضاعه من قبل مجيء أُمه قال المفسرون : بقي أياماً كلما أُتي بمرضع لم يقبل ثديها ، فأهمهم ذلك واشتد عليهم الأمر فخرجوا به يبحثون له عن مرضعة خارج القصر فرأوا أخته ﴿فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم﴾ أي هل أدلكم على مرضعة له تكفله وترعاه ؟ ﴿وهم له ناصحون﴾ أي لا يقصرون في إرضاعه وتربيته قال السدي : فدلتهم على أم موسى فانطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها ، والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع ، فدفعه إليها فلما وجد ريح أمه قبل ثديها ، فقال فرعون : من أنت منه فقد أبى كل ثديٍ إلا ثديك ؟ فقالت : إني امرأة طيبة الريح ، طيبة

(١) الطبري ٢٠ / ٢٢.
(٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وجمهور المفسرين ، والقول الثاني ذكره القرطبي عن ابن القاسم عن مالك ، ولعله الأظهر .

﴿فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

اللبن ، لا أكاد أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها ، فرجعت إلى بيتها من يومها ولم يبق أحدٌ من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالهدايا والجواهر فذلك قوله تعالى ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن﴾ أي أعدناه إليها تحقيقا للوعد كي تسعد وتهنأ بلقائه ولا تحزن على فراقه ﴿ولتعلم أنَّ وعد الله حق﴾ أي ولتتحقق من صدق وعد الله برده عليها وحفظه من شر فرعون ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثر الناس يرتابون ويشكون في وعد الله القاطع ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ أي ولما بلغ كمال الرشد ، ونهاية القوة ، وتمام العقل والاعتدال قال مجاهد : هو سنُّ الأربعين ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ أي أعطيناه الفهم والعلم والتفقه في الدين مع النبُوَّة ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي ومثل هذا الجزاء الكريم نجازي المحسنين على إحسانهم ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ أي دخل مصر وقت الظهيرة والناس يخلدون للراحة عند القيلولة ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه﴾ أي فوجد شخصين يتقاتلان : أحدهما من بني إسرائيل من جماعة موسى ، والآخر قبطي من جماعة فرعون ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ أي فاستنجد الإسرائيلي بموسى وطلب غوثه ليدفع عنه شر القبطي ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ أي ضربه موسى بجمع كفه فقتله ، قال القرطبي : فعل موسى ذلك وهو لا يريد قتله إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه وكانت القاضية[1] ﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾ أي هذا من إغواء الشيطان فهو الذي هيَّج غضبي حتى ضربت هذا ﴿إنه عدوٌ مضل مبين﴾ أي إن الشيطان عدوٌ لابن آدم ، مضلٌ له عن سبيل الرشاد ، ظاهر العداوة قال الصاوي : نسبه إلى الشيطان من حيث إنه لم يؤمر بقتل القبطي ، وظهر له أن قتله خلاف الأولى لما يترتب عليه من الفتن ، والشيطان تفرحه الفتن ولذلك ندم على فعله[2] ﴿قال ربِّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾ أي إني ظلمت نفسي بقتل النفس فاعف عني ولا تؤاخذني بخطيئتي ﴿فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي إنه تعالى المبالغ في المغفرة للعباد ، الواسع الرحمة لهم ﴿قال ربِّ بما أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ أي بسبب إنعامك عليَّ بالقوة وبحق ما أكرمتني به من الجاه والعز ، فلن أكون عوناً لأحد من المجرمين[3] ، وهذه معاهدة عاهد موسى ربه عليها وقيل : هو

(١) القرطبي ١٣/ ٢٦١. (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ١١٢

(٣) قال الرازي : وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة .

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

قسم وهو ضعيف ﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقب﴾ أي فأصبح موسى في المدينة التي قتل فيها القبطي خائفاً على نفسه يتوقع وينتظر المكروه ، ويخاف أن يؤخذ بجريرته ﴿فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه﴾ أي فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي خلَّصه بالأمس يقاتل قبطياً آخر فلما رأى موسى أخذ يصيح به مستغيثاً لينصره من عدوه ﴿قال له موسى إنك لغويٌ مبين﴾ أي قال موسى للإسرائيلي : إنك لبيِّنُ الغواية والضلال ، فإني وقعت بالأمس فيما وقعت فيه من قتل رجلٍ بسببك وتريد أن توقعني اليوم في ورطةٍ أخرى ؟ ﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوٌ لهما﴾ أي فحين أراد موسى أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدوٌ له وللإسرائيلي ﴿قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾ أي قال القبطي : أتريد قتلي كما قتلت غيري بالأمس[1] ؟ ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض﴾ أي ما تريد يا موسى إلا أن تكون من الجبابرة المفسدين في الأرض ﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ أي وما تريد أن تكون من الذين يصلحون بين الناس .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الإشارة بالبعيد عن القريب لبعد مرتبته في الكمال ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ .

٢ ـ حكاية الحالة الماضية ﴿ونريد أن نمُنَّ﴾ لاستحضار تلك الصورة في الذهن .

٣ ـ إيثار الجملة الإسمية على الفعلية ﴿إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ ولم يقل سنرده ونجعله رسولاً وذلك للاعتناء بالبشارة لأن الجملة الإسمية تفيد الثبوت والإستمرار .

٤ ـ الاستعارة ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ شبه ما قذف الله في قلبها من الصبر بربط الشيء المنفلت خشية الضياع واستعار لفظ الربط للصبر .

٥ ـ صيغة التعظيم ﴿لا تقتلوه﴾ تخاطب فرعون ولم تقل لا تقتله تعظيماً له .

٦ ـ صيغة المبالغة ﴿جبَّار ، غوي ، مبين﴾ لأن فعال وفعيل من صيغ المبالغة .

٧ ـ الطباق المعنوي ﴿جباراً . . وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ لأن الجبار المفسد المخرِّب ، المكثر للقتل وسفك الدماء ففيه طباق في المعنى .

---

١) هذا هو الظاهر أن القاتل هو القبطي لا الإسرائيلي لأن قوله ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً﴾ لا يصدر من المؤمن وإنما من الكافر .

٨ ـ الاستعطاف ﴿ربِّ بما أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ .

٩ ـ توافق الفواصل في كثير من الآيات مثل ﴿وهم لا يشعرون﴾ ﴿وهم له ناصحون﴾ ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وهو من المحسنات البديعية .

لطيفة : «حكى العلاَّمة القرطبي عن الأصمعي أنه قال سمعت جارية أعرابية تنشد :

أستغفر الله لذنبي كله ... قتلتُ إنساناً بغير حلِّه
مثل الغزال ناعماً في دله ... انتصف الليل ولم أُصلِّه

فقلت : قاتلك الله ما أفصحك ؟ فقالت : ويحك أويعد هذا فصاحة مع قول الله عز وجل ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ فقد جمع في آية واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين وبشارتين»[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى . . إلى . . ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ من آية (٢٠) إلى نهاية آية (٤٢) .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن قصة موسى ، وقد تناولت الآيات السابقة قصة ولادته وإرضاعه ، وتربيته في بيت فرعون إلى أن شبَّ وبلغ سنَّ الرشد والكمال ، ثم قتله للفرعوني ، وتتحدث الآيات هنا عن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب ، ثم عودته إلى مصر ، ونزول النبوة عليه ، وهلاك فرعون على يديه .

اللغة : ﴿يأتمرون﴾ يتشاورون قال الأزهري : ائتمر القوم وتآمروا أي أمر بعضهم بعضاً ﴿تذودان﴾ ذاد يذود إذا حبس ومنع ، وذاد طرد قال الشاعر :

لقد سلبت عصاك بنو تميم ... فما تدري بأي عصى تذود[2]

﴿خطبكما﴾ الخطب : الشأن قال رؤبة : «يا عجباً ما خطبه وخطبي» ﴿الرعاء﴾ جمع راعٍ مثل صاحب وصحاب وهو الذي يرعى الغنم ﴿حجج﴾ جمع حجة بكسر الحاء وهي السنة ﴿جذوة﴾ الجذوة : الجمرة الملتهبة ﴿ردءاً﴾ عوناً قال الجوهري : أردأتُه أعنته ، وكنتُ له ردءاً أي عوناً ﴿المقبوحين﴾ الهالكين المبعدين أو القبيحين في الصورة يقال : قَبَحه الله وقبَّحه إذا جعله قبيحاً .

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/٢٥٢ . (٢) البيت لجرير يهجو الفرزدق كذا في القرطبي ١٣/٢٦٨ .

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

التفسير : ﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى﴾ أي وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه من أبعد أطراف المدينة يشتد ويسرع في مشيه قال ابن عباس : هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون ﴿قال يا موسى إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ أي قال له يا موسى : إن أشراف فرعون ، ووجوه دولته يتشاورون فيك بقصد قتلك ﴿فاخرج إني لك من الناصحين﴾ أي فاخرج قبل أن يدركوك فأنا ناصحٌ لك من الناصحين ﴿فخرج منها خائفاً يترقَّب﴾ أي فخرج من مصر خائفاً على نفسه يترقب وينتظر الطلب أن يدركه فيأخذه ، ثم التجأ إلى الله سبحانه بالدعاء لعلمه بأنه لا ملجأ سواه ﴿قال ربِّ نجني من القوم الظالمين﴾ أي خلصني من الكافرين واحفظني من شرهم ـ والمراد بهم فرعون وملؤه ـ ﴿ولما توجَّه تلقاء مدين﴾ أي قصد بوجهه ناحية مدين وهي بلدة شعيب عليه السلام ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ أي لعل الله يرشدني إلى الطريق السوي الذي يوصلني إلى مقصودي قال المفسرون: خرج خائفاً بغير زاد ولا ظهر ـ مركب ـ وكان بين مصر ومدين مسيرةُ ثمانية أيام ، ولم يكن له علمٌ بالطريق سوى حسن ظنه بربه ، فبعث الله إليه ملكاً فأرشده إلى الطريق ، ويروى أنه لما وصل مدين كانت خضرةُ البقل تتراءى من بطنه من الهزال ، لأنه كان في الطريق يتقوت ورق الشجر ﴿ولمَّا ورد ماء مدين وجد عليه أُمةً من الناس يسقون﴾ أي ولما وصل إلى مدين بلدة شعيب وجد على البئر الذي يستقي منه الرعاة جمعاً كثيفاً من الناس يسقون مواشيهم ﴿ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾ أي ووجد سوى الجماعة الرعاة امرأتين تكفَّان غنمهما عن الماء ﴿قال ما خطبكما﴾ ؟ أي ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء ؟ ولم لا تسقيان مع السقاة ؟ ﴿قالتا لا نسقي حتى يصدر الرِّعاءُ وأبونا شيخ كبير﴾ أي من عادتنا التأني حتى ينصرف الرعاةُ مع أغنامهم عن الماء ، ولا طاقة لنا على مزاحمة الأقوياء ، ولا نريد مخالطة الرجال ، وأبونا رجل مُسنٌ لا يستطيع لضعفه أن يباشر سقاية الغنم ، ولذلك اضطررنا إلى أن نسقي بأنفسنا قال أبو حيان : فيه اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما ، وتنبيهٌ على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطافٌ لموسى في إعانتهما[1] ﴿فسقى لهما ثم تولَّى إلى الظل﴾ أي فسقى لهما غنمهما رحمة بهما ، ثم تنحى جانباً جلس تحت ظل شجرة ﴿فقال ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير﴾ أي إني يا ربِّ محتاجٌ إلى فضلك

---

١) البحر ٧/١١٣.

فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

وإحسانك ، وإلى الطعام الذي أسُدُّ به جوعي ، طلب من الله ما يأكله وكان قد اشتد عليه الجوع قال الضحاك : مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاماً إلا بقل الأرض[1] وقال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى « مدين » ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه للاصقٌ بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاجٌ إلى شق تمرة[2] ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ في الكلام اختصار تقديره : فذهبتا إلى أبيهما سريعتين ، وكان من عادتها الإبطاء فحدثتاه بما كان من أمر الرجل ، فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته تمشي . . الخ أي جاءته حال كونها تمشي مشية الحرائر بحياء وخجل قد سترت وجهها بثوبها قال عمر : لم تكن بسلفع من النساء خرَّاجة ولأجة[3] ﴿قالت إنَّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ أي إنَّ أبي يطلبك ليعوضك عن أجر السقاية لغنمنا قال ابن كثير : وهذا تأدبٌ في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة[4] ﴿فلما جاءه وقصَّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ أي فلما جاءه موسى وذكر له ما كان من أمره وسبب هربه من مصر قال له شعيب : لا تخف فأنت في بلدٍ آمن لا سلطان لفرعون عليه وقد نجاك الله من كيد المجرمين ﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره﴾ أي استأجره لرعي أغنامنا وسقايتها ﴿إنَّ خير من استأجرت القويُّ الأمين﴾ أي إنَّ أفضل من تستأجره من كان قوياً أميناً قال أبو حيان : وقولها كلام حكيم جامع لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر من الأمور فقد تمَّ المقصود[5] ، روي أن شعيباً قال لها : وما أعلمك بقوته وأمانته ؟ فقالت : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإني لما جئتُ معه تقدمتُ أمامه فقال لي : كوني من ورائي ودليني على الطريق ، ولما أتيته خفض بصره فلم ينظر إليَّ ، فرغب شعيب في مصاهرته وتزويجه بإحدى بناته ﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتيَّ هاتين﴾ أي إني أريد ان أزوجك إحدى بنتيَّ هاتين الصغرى أو الكبرى ﴿على أنْ تأجرني ثماني حجج﴾ أي بشرط أن تكون أجيراً لي ثماني سنين ترعى فيها غنمي ﴿فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾ أي فإن أكملتها عشر سنين فذلك تفضل منك ، وليس بواجب عليك ﴿وما أريد أن أشقَّ عليك﴾ أي وما أُريد أن أوقعك في المشقة باشتراط العشر ﴿ستجدني إن شاء الله

(١) الرازي ٢٤/ ٢٤٠. (٢) ابن كثير المختصر ٣/ ١٠ (٣) الطبري ٢٠/ ٣٩ والسلفع : الجريئة السليطةُ الجَسُور أفاده الجوهري .
(٤) ابن كثير ٣/ ١١ . (٥) البحر ٧/ ١١٤ .

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

من الصالحين﴾ أي ستجدني إن شاء الله حسن المعاملة ، ليِّن الجانب ، وفياً بالعهد قال القرطبي : في الآية عرضُ الوليّ ابنته على الرجل ، وهذه سُنة قائمة ، عرض شعيب ابنته على موسى ، وعرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي ﷺ،فمن الحُسْن عرض الرجل وليته على الرجل الصالح ، اقتداءً بالسلف الصالح[1] **﴿قال ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيتُ فلا عدوان عليّ﴾** أي قال موسى : إنَّ ما قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج عنه ، وأيَّ المدتين الثماني أو العشر أديتها لك فلا إثم ولا حرج عليَّ **﴿والله على ما نقول وكيل﴾** أي والله شاهد على ما تعاهدنا وتواثقنا عليه **﴿فلما قضى موسى الأجل﴾** أي فلما أتم موسى المدة التي اتفقا عليها قال ابن عباس : قضى أتم الأجلين وأكملهما وأوفاهما وهو عشر سنين **﴿وسار بأهله﴾** أي ومشى بزوجته مسافراً بها إلى مصر **﴿آنس من جانب الطور ناراً﴾** أي أبصر من بعيد ناراً تتوهج من جانب جبل الطور **﴿قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً﴾** أي قال لزوجته امكثي هنا فقد أبصرت ناراً عن بعد قال المفسرون : كانت ليلةً باردة وقد أضلوا الطريق ، وهبَّت ريح شديدة فرقت ماشيته ، وأخذ أهله الطلق فعند ذلك أبصر ناراً بعيدة فسار إليها لعله يجد من يدله على الطريق فذلك قوله تعالى **﴿لعلّي آتيكم منها بخبر﴾** أي لعلي آتيكم بخبر الطريق وأرى من يدلني عليه **﴿أو جذوةٍ من النار لعلكم تصطلون﴾** أي أو آتيكم بشعلة من النار لعلكم تستدفئون بها **﴿فلما أتاها نُودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة﴾** أي فلما وصل إلى مكان النار لم يجدها ناراً وإنما وجدها نوراً ، وجاءه النداء من جانب الوادي الأيمن في ذلك المكان المبارك من ناحية الشجرة **﴿أنْ يا موسى إني أنا الله ربُّ العالمين﴾** أي نودي يا موسى إن الذي يخاطبك ويكلمك هو أنا الله العظيم الكبير ، المنزه عن صفات النقص ، ربُّ الإنس والجن والخلائق أجمعين **﴿وأنْ ألق عصاك﴾** أي ونودي بأن اطرح عصاك التي في يدك **﴿فلما رآها تهتز كأنها جانٌ ولى مدبراً ولم يعقب﴾** أي فألقاها فانقلبت إلى حيّة فلما رآها تتحرك كأنها ثعبان خفيف سريع الحركة انهزم هارباً منها ولم يلتفت إليها قال ابن كثير : انقلبت العصى إلى حية وكانت كأنها جانٌ في حركتها السَريعة مع عِظَم خلقتها ، واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها تنحدر في فمها تتقعقع كأنها حادرة في واد ، فعند ذلك ولّى مدبراً ولم

(١) القرطبي ١٣/ ٢٧١ .

ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ

يلتفت ، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك[1] ﴿يا موسى أقْبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾ أي فنودي يا موسى : إرجع إلى حيث كنت ولا تخف فأنت آمنٌ من المخاوف ، فرجع وأدخل يده في فم الحية فعادت عصا ﴿أسْلُكْ يدك في جيبك تخرجْ بيضاء من غير سوء﴾ أي أدخل يدك في جيب قميصك ـ وهو فتحة الثوب مكان دخول الرأس ـ ثم أخرجها تخرج مضيئةً منيرة تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق من غير أذى ولا برص ﴿واضممْ إليك جناحك من الرهب﴾ قال ابن عباس : اضمم يدك إلى صدرك من الخوف يذهب عنك الرعب قال المفسرون : المراد بالجناح اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر ، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه وبذلك يذهب عنه الخوف من الحيةومن كل شيء ﴿فذلك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه﴾ أي فهذان ـ العصا واليد ـ دليلان قاطعان ، وحجتان نيرتان واضحتان من الله تعالى تدلان على صدقك ، وهما آيتان إلى فرعون وأشراف قومه الطُغاة المتجبرين ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي خارجين عن طاعتنا ، مخالفين لأمرنا ﴿قال ربِّ إني قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلون﴾ أي قال موسى يا رب إني قتلت قبطياً من آل فرعون وأخشى إن أتيتهم أن يقتلوني به قال المفسرون : هو القبطي الذي وكزه فمات ، فطلب من ربه ما يزداد به قوة على مجابهة فرعون بإرسال أخيه هارون معه فقال ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾ أي هو أوضح بياناً ، وأطلق لساناً ، لأن موسى كان في لسانه حُبْسة من أثر الجمرة التي تناولها في صغره ﴿فأرسله معي رِدْءاً يُصدِّقني﴾ أي فأرسلْهُ معي معيناً يبيِّن لهم عني ما أكلمهم به بتوضيح الحجج والبراهين ﴿إني أخاف أن يكذبون﴾ أي أخاف إن لم يكن لي وزير ولا معين أن يكذبوني لأنهم لا يكادون يفقهون عني ، قال الرازي : والمعنى أرسل معي أخي هارون حتى يعاضدني على إظهار الحجة والبيان ، وليس الغرض بتصديق هارون أن يقول له : صدقتَ ، أو يقول للناس : صدقَ موسى ، وإنما هو أن يُلخِّص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ، ويجيب عن الشبهات ، ويجادل به الكفار[2] ﴿قال سنشدُّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً﴾ أي أجابه تعالى إلى طلبه وقال له : سنقوّيك

(١) يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان «والقى موسى عصاه إطاعةً لأمر مولاه ، ولكن ماذا حدث ؟ إنها لم تعد عصاه التي صاحبها طويلاً والتي يعرفها معرفة اليقين ، ولكنها حية تدب في سرعةٍ ، وتتحرك في خفةٍ ، وتتلوى كصغار الحيات وهي حية كبرى ، إنها المفاجأة التي لم يستعد لها ولذلك ولّى مدبراً ولم يعقب ، لم يفكر في العودة إليها ليتبين ماذا بها ، وليتأمل هذه العجيبة الضخمة ، ثم يستمع إلى ربه الأعلى ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾ وكيف لا يأمن من ترعاه عين الله ؟ ثم يأتيه النداء مرة اخرى ﴿أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ وأطاع موسى الأمر ، وأدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره ثم أخرجها ، فإذا هي المفاجأة الثانية في اللحظة الواحدة ، إنها بيضاء لامعة مشعة من غير مرض ، وقد عهدها أدماء تضرب إلى السمرة ، إنها إشارة الى إشراق الحق ، ووضوح الآية ، ونصاعة الدليل» من الظلال . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٤/ ٣٤٩ .

عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾

بأخيك ونعينك به ، ونجعل لكما غلبةً وتسلطاً على فرعون وقومه ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب ما أيدتكما به من المعجزات الباهرات ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ أي العاقبة لكما ولأتباعكما في الدنيا والآخرة ، وأنتم الغالبون على القوم المجرمين كقوله تعالى ﴿كَتَبَ الله لأغلبنَّ أنا ورسلي إنَّ الله قوي عزيز﴾ ﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات﴾ أي فلما جاءهم موسى بالبراهين الساطعة ، والمعجزات القاطعة ، الدالة على صدقه وأنه رسولٌ من عند الله ﴿قالوا ما هذا إلاّ سحرٌ مفترى﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به من العصا واليد إلا سحرٌ مكذوب مختلق ، افتريته من قِبل نفسك وتنسبه إلى الله ﴿وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ أي وما سمعنا بمثل هذه الدعوى ـ دعوى التوحيد ـ في آبائنا وأجدادنا السابقين ﴿وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبةُ الدار﴾ أجمل موسى في جوابهم تلطفاً في الخطاب ، وإيثاراً لأحسن الوجوه في المجادلة معهم والمعنى : إن ما جئتكم به حقٌ وهدى وليس بسحر ، وربي عالمٌ بذلك يعلم أني محقٌ وأنتم مبطلون ، ويعلم من تكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا يسعد ولا ينجح من كان ظالماً فاجراً ، كاذباً على الله ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري﴾ أي قال فرعون لأشراف قومه وسادتهم : ما علمتُ لكم إلهاً غيري قال ابن عباس : كان بين هذه القولة الفاجرة وبين قوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ أربعون سنة ، وكذب عدوُّ الله بل علم أن له رباً هو خالقه وخالق قومه[1] ﴿فأوقدْ لي يا هامانُ على الطين فاجعل لي صرحاً﴾ أي فاطبخ لي يا هامان الآجر فاجعل لي منه قصراً شامخاً رفيعاً ﴿لعلي اطلِعُ إلى إله موسى﴾ أي لعلي أرى وأشاهد إله موسى الذي زعم أنه أرسله ، قال ذلك على سبيل التهكم ولهذا قال بعده ﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾ أي وإني لأظن موسى كاذباً في ادعائه أن في السماء رباً قال تعالى ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق﴾ أي وتكبر وتعظم فرعون وقومه عن الإيمان بموسى في أرض مصر بالباطل والظلم ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ أي واعتقدوا أن لا بعث ولا نشور ، ولا

(١) القرطبي ١٣/٢٨٨.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

حساب ولا جزاء ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ﴾ أي فأخذناه مع جنوده فطرحناهم في البحر، وأغرقناهم فلم يبق منهم أحد ﴿فانظر كيف كان عاقبةُ الظالمين﴾ أي فانظر يا محمد بعين قلبك نظر اعتبار كيف كان مآل هؤلاء الظالمين الذين بلغوا من الكفر والطغيان أقصى الغايات؟ ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ أي وجعلناهم في الدنيا قادة وزعماء في الكفر يقتدي بهم أهلُ الضلال ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ أي ويوم القيامة ليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي جعلنا اللعنة تلحقهم في هذه الحياة الدنيا من الله والملائكة والمؤمنين ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ أي وفي الآخرة هم من المبعدين المطرودين من رحمة الله عز وجل.

البَلاَغَة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التأكيد بإنَّ واللام ﴿إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ مناسبةً لمقتضى الحال.

٢ - الاستعطاف والترحم ﴿ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خيرٍ فقير﴾.

٣ - جناس الاشتقاق ﴿وقصَّ عليه القصص﴾.

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿تهتز كأنها جانٌ﴾ حذف وجه الشبه فأصبح مجملاً.

٥ - الطباق بين ﴿يصدقني.. ويكذبون﴾.

٦ - الكناية ﴿واضمم إليك جناحك﴾ كنى عن اليد بالجناح، لأنها للإنسان كالجناح للطائر.

٧ - المجاز المرسل ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ من إطلاق السبب وإرادة المسبب لأن شد العضد يستلزم شد اليد، وشد اليد مستلزم للقوة، قال الشهاب: ويمكن أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية، شبه حال موسى في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بيد شديدة.

لَطِيفَة: قال الزمخشري: إنما قال ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ أي أوقد لي النار فاتخذ منه آجراً ولم يقل «أطبخ لي الآجر» لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقته، وأشبه بكلام الجبابرة، وهامان وزيره ومدبّر رعيته.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى.. إلى.. وله الحكم وإليه ترجعون﴾ من آية (٤٣) إلى نهاية آية (٧٠).

المنَاسَبَة : بعد أن ذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل بإهلاك فرعون رأس الطغيان وتخليصهم من شره ، ذكر هنا ما أنعم به عليهم من إنزال التوراة التي فيها الهدى والنور ، كما ذكر نعمته على العرب بإنزال القرآن العظيم خاتمة الكتب السماوية .

اللغَة : ﴿ثاوياً﴾ مقيماً وثوى بالمكان أقام به قال الشاعر :

« لقد كان في حولٍ ثواءٌ ثويته »[1]

﴿يدرءون﴾ يدفعون ، والدرءُ : الدفع وفي الحديث (إدرءوا الحدود بالشبهات) ﴿يجبى﴾ يجمع ، جبى الماء في الحوض جمعه ، والجابية : الحوض العظيم ﴿بطرت﴾ البطر : الطغيان في النعمة ﴿الأنباء﴾ الأخبار جمع نبأ وهو الخبر الهام .

سَبَبُ النّزول : لما حضرت أبا طالبٍ الوفاة قال له رسول الله ﷺ : يا عم قل « لا إله إلا الله » أشهد لك بها يوم القيامة فقال أبو طالب : لولا أن تعيرني قريش يقولون : إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله عز وجل ﴿إنَّك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين﴾[2] .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ

التفسِير :﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ماأهلكنا القرون الأولى﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد أعطينا موسى التوراة من بعد ما أهلكنا الأمم التي كانت قبله كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود وقوم لوطٍ وغيرهم من المكذبين لرسلهم﴿بصائر للناس﴾ أي ضياءً لبني إسرائيل ونوراً لقلوبهم يتبصرون بها الحقائق ، ويميزون بها بين الحق والباطل ﴿وهدى ورحمةً لعلهم يتذكرون﴾ أي وهدى من الضلالة ، ورحمة لمن آمن بها ليتعظوا بما فيها من المواعظ والإرشادات الإلهية ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي ، وهو المكان الذي كلّم الله تعالى به موسى ﴿إذْ قضينا إلى موسى الأمر﴾ أي حين أوحينا إلى موسى بالنبوة وأرسلناه إلى فرعون وقومه ﴿وما كنتَ من الشاهدين﴾ أي وما كنت من الحاضرين في ذلك المكان ، ولكن الله أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على صدقك قال ابن كثير : يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأنَّ سامعه شاهد وراء لما تقدَّم ، وهو رجل أُميٌّ لا يقرأ شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك ، والمعنى ما كنتَ حاضراً لذلك ولكنَّ الله أوحاه إليك لتخبرهم بتلك المغيبات[3] ﴿ولكنَّا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر﴾ أي ولكنَّا خلقنا أُمماً وأجيالاً

(١) البحر المحيط ٧/ ١٠٣. (٢) أخرجه مسلم وانظر زاد المسير ٦/ ٢٣١. (٣) ابن كثير ٣/ ١٥ المختصر .

أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ

من بعد موسى ، فتطاول عليهم الزمان ، وطالت الفترة فنسوا ذكر الله ، وبدّلوا وحرفوا الشرائع فأرسلناك يا محمد لتجدّد أمر الدين قال أبو السعود : المعنى ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قروناً كثيرة ، فتمادى عليهم الأمر ، فتغيرت الشرائع والأحكام ، وعميت عليهم الأنباء فأوحينا إليك ، فحذف المستدرك اكتفاءً بذكر الموجب[١] ﴿وما كنتَ ثاوياً في أهل مدين تتلـوا عليهم آياتنا﴾ أي وما كنتَ يا محمد مقيماً في أهل مدين فتعلم خبر موسى وشعيب وابنتيه فتتلو ذلك على أهل مكة ﴿ولكنا كنّا مرسلين﴾ أي ولكنا أرسلناك في أهل مكة وأخبرناك بتلك الأخبار ، ولولا ذلك لما علمتها ﴿وما كنتَ بجانب الطُّو ر إذْ نادينا﴾ أي وما كنتَ أيضاً بجانب جبل الطور وقت ندائنا لموسى وتكليمنا إياه ﴿ولكن رحمةً من ربِّـك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلـك﴾ أي لم تشاهد شيئاً من أخبار وقصَص الأنبياء ، ولكنّا أوحيناها إليك ، وقصصناها عليك ، رحمةً من ربك لتخوّف قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد ﴿لعلهم يتذكّرون﴾ أي لعلهم يتعظون بما جئتهم به من الآيات البينات ، فيدخلوا في دينك قال المفسرون : المراد بالقوم الذين كانـوا في زمـن الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وهي نحوٌ من ستمائة سنة ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبةٌ بما قدمت أيديهم﴾ أي ولولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿فيقولوا ربَّنا لولا أرسلـتَ إلينـا رسولاً فنتَّبع آياتـك ونكون من المؤمنين﴾ أي فيقولوا عند ذلك ربنا هلاّ أرسلت إلينا رسولاً يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين بها !! قال القرطبي : وجواب ﴿لولا﴾ محذوف تقديره لما بعثنا الرسل[٢] ، وقال في التسهيل : ﴿لولا﴾ الأولى حرف امتناع ، و ﴿لولا﴾ الثانية عرضٌ وتحضيض ، والمعنى : لولا أن تصيبهم مصيبة بكفرهم لم نرسل الرسل ، وإنما أرسلناهم على وجه الإعذار وإقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا ربَّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك ونكون من المؤمنين[٣] ، ثم أخبر تعالى عن عناد المشركين وتعنتهم في ردِّ الحق فقال ﴿فلما جاءهم الحقُّ من عندنا قالوا لولا أُوتي مثل ما أُوتي موسـى﴾ أي فلما جاء أهل مكة الحقُّ المبين وهو محمد بالقرآن المعجز من عندنا قالوا ـ على وجه التعنت والعناد ـ هلاّ أُعطي محمد من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة مثل ما أُعطي موسى من العصا واليد !! قال تعالى رداً عليهم ﴿أو لم يكفروا بما أُوتي موسـى من قبلُ ؟﴾ أي أو لم يكفر البشر بما أُوتي موسى من تلك الآيات الباهرة ؟ ! قال مجاهد : أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمد : ائتنا بمثل ما جاء به موسى من المعجزات ، فردَّ الله عليهم

(١) تفسير أبو السعود ٤/ ١٥٥. (٢) القرطبي ١٣/ ٢٩٣. (٣) التسهيل ٣/ ١٠٧.

يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾

بأنهم كفروا بآيات موسى[1] ، فالضمير في ﴿أو لم يكفروا﴾ لليهود ، وهذا اختيار ابن جرير وقال أبو حيان : ويظهر عندي أن الضمير عائد على قريش الذين قالوا لولا أُوتي محمد مثل ما أُوتي موسى ، وذلك أن تكذيبهم لمحمدﷺ تكذيبٌ لموسى ، ونسبتهم السحر للرسول نسبة السحر لموسى ، إذ الأنبياء من وادٍ واحدٍ فمن نسب إلى أحدٍ من الأنبياء ما لا يليق كان ناسباً ذلك إلى جميع الأنبياء ، وتتناسق حينئذٍ الضمائر كلُّها[2] ﴿قالوا سحران تظاهرا﴾ أي وقال المشركون ما التوراة والقرآن إلا من قبيل السحر ، فهما سحران تعاونا بتصديق كل واحدٍ منهما الآخر قال السُدّي : صدَّق كل واحدٍ منهما الآخر ﴿وقالوا إنّا بكل كافرون﴾ أي إنّا بكل من الكتابين كافرون قال أبو السعود : وهذا تصريحٌ بكفرهم بهما وذلك لغاية عتوهم وتماديهم في الكفر والطغيان[3] ﴿قل فأتوا بكتابٍ من عند الله هو أهدى منهما أتبعه﴾ أمرٌ على وجه التعجيز أي قل لهم يا محمد إنكم إذْ كفرتم بهذين الكتابين مع ما تضمنا من الشرائع والأحكام ومكارم الأخلاق فائتوني بكتاب منزل من عند الله أهدى منهما وأصلح أتمسك به ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في أنهما سحران قال ابن كثير : وقد عُلِم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم من الكتاب الذي أنزله على محمدﷺ وهو القرآن ، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى ، وهو الكتاب الذي قال فيه ﴿إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ والإنجيلُ إنما أُنزل متمماً للتوراة ومُحِلاً لبعض ما حُرم على بني إسرائيل[4] ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلمْ أنَّما يتبعون أهواءهم﴾ أي فإن لم يجيبوك إلى ما طلبته منهم فاعلم أن كفرهم عنادٌ واتباع للأهواء لا بحجةٍ وبرهان ﴿ومَنْ أضل ممَّن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ أي لا أحد أضلُّ ممن اتبع هواه بغير رشادٍ ولا بيانٍ من الله ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يوفق للحق من كان معانداً ظالماً ، بالانهماك في اتباع الهوى، والإعراض عن سبيل الهدى ﴿ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون﴾ أي ولقد تابعنا وواليْنا لقريش القرآن يتبع بعضهُ بعضاً ، وعداً ووعيداً ، وقصصاً وعبراً ، ونصائح ومواعظ ليتعظوا ويتذكروا بما فيه قال ابن الجوزي : المعنى أنزلنا القرآن يتبع بعضهُ بعضاً ، ويخبر عن الأمم الخالية كيف عُذبوا لعلهم يتعظون[5] ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ أي الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل من قبل هذا القرآن ـ من مسلمي أهل الكتاب ـ هم بهذا القرآن يصدقون قال ابن عباس : يعني من آمن بمحمدﷺ

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ١٧ . (٢) البحر ٧/ ١٢٣ . (٣) تفسير أبو السعود ٤/ ١٥٦ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ١٧ . (٥) زاد المسير ٦/ ٢٨٨ .

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

من أهل الكتاب[1] ﴿وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحقُّ من ربنا﴾ أي وإذا قرىء عليهم القرآن قالوا صدقنا بما فيه ﴿إنا كنا من قبله مسلمين﴾ أي كنا من قبل نزوله موحدين لله ، مستسلمين لأمره ، مؤمنين بأنه سيبعث محمد وينزل عليه القرآن قال تعالى ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الجميلة يعطون ثوابهم مضاعفاً ، مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرةً على إيمانهم بالقرآن وفي الحديث (ثلاثة يُؤْتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه ثم آمن بي . .)[2] الحديث ﴿بما صبروا﴾ أي بسبب صبرهم على اتباع الحقِّ ، وتحملهم الأذى في سبيل الله قال قتادة : نزلت في أناسٍ من أهل الكتاب ، كانوا على شريعةٍ من الحق يأخذون بهاوينتهون إليها ، حتى بعث الله محمداً ﷺ فآمنوا به وصدَّقوه ، فأعطاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا ، وذُكر أن منهم سلمان وعبد الله بن سلام[3] ﴿ويدرءون بالحسنة السيئة﴾ أي ويدفعون الكلام القبيح كالسب والشتم بالحسنة أي الكلمة الطيبة الجميلة قال ابن كثير : لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون[4] ﴿وممَّا رزقناهم ينفقون﴾ أي ومن الذي رزقناهم من الحلال ينفقون في سبيل الخير ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ أي وإذا سمعوا الشتم والأذى من الكفار وسمعوا ساقط الكلام ، لم يلتفتوا إليه ولم يردُّوا على أصحابه ﴿وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ أي لنا طريقنا ولكم طريقكم ﴿سلامٌ عليكم﴾ أي سلام متاركة ومباعدة قال الزجاج : لم يريدوا التحية وإنما أرادوا بيننا وبينكم المتاركة ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ أي لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم قال الصاوي : كان المشركون يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون : تباً لكم أعرضتم عن دينكم وتركتموه ! فيعرضون عنهم ويقولون لنا أعمالنا ولكم أعمالكم[5] . مدحهم تعالى بالإيمان ، ثم مدحهم بالإحسان ، ثم مدحهم بالعفو والصفح عن أهل العدوان ، ثم قال تعالى مخاطباً رسوله ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ أي إنك يا محمد لا تقدر على هداية أحد ، مهما بذلت فيه من مجهود ، وجاوزت في السعي كل حدٍّ معهود ﴿ولكنَّ الله يهدي من يشاء﴾ أي ولكنه تعالى بقدرته يهدي من قدر له الهداية ، فسلم أمرك إليه فإنه أعلم بأهل السعادة والشقاوة ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي هو تعالى العالم بمن فيه استعداد للهداية والإيمان فيهديه قال المفسرون : نزلت في عمه « أبي طالب » حين عرض عليه الإسلام عند موته فأبى قال أبو حيان : ومعنى ﴿إنَّك لا تهدي من أحببت﴾ أي لا تقدر على خلق الهداية فيه ، ثم قال : ولا تنافي بين هذا وبين

---

(١) الطبري ٢٠/٥٦ . (٢) أخرجه مسلم . (٣) الطبري ٢٠/٥٦ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/١٨ . (٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٢١ .

وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

قوله ﴿وإنَّك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم﴾ لأن معنى هذا : وإنك لترشد ، وقد أجمع المسلمون على أنها نزلت في «أبي طالب»[1] ثم ذكر تعالى شبهةً من شبهات المشركين وردَّ عليها بالبيان الواضح فقال ﴿وقالوا إنْ نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ أي وقال كفار قريش : إن اتبعناك يا محمد على دينك وتركنا ديننا نخاف أن تتخطفنا العرب فيجتمعون على محاربتنا ، ويخرجوننا من أرضنا ، قال المبرد : والتخطُّف الانتزاع بسرعة، قال تعالى رداً عليهم ﴿أولم نمكِّن لهم حرماً آمناً﴾ أي أولم نعصمْ دماءهم ونجعل مكانهم حرماً ذا أمن ، بحرمة البيت العتيق ؟ فكيف يكون الحرم آمناً لهم في حال كفرهم ، ولا يكون آمناً لهم في حال إسلامهم ؟ ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيءٍ رزقاً من لدنَّا﴾ أي تُجْلب إليه الأرزاق من كل مكان مع أنه بوادٍ غير ذي زرع رزقاً لهم من عندنا ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة لا يتفكرون في ذلك ولا يتفطنون قال أبو حيان : قطع الله حجتهم بهذا البيان الناصع إذْ كانوا وهم كفارٌ بالله ، عباد أصنام قد أمِنوا في حرمهم ، والناسُ في غيره يتقاتلون وهم مقيمون في بلدٍ غير ذي زرع ، يجيء إليهم ما يحتاجون من الأقوات، فكيف إذا آمنوا واهتدوا؟[2] ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ أي وكثير من أهل قريةٍ طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فدمَّر الله عليهم وخرب ديارهم ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلاَّ قليلاً﴾ أي فتلك مساكنهم خاويةً بما ظلموا لم تسكن من بعد تدميرهم إلاَّ زماناً قليلاً إذْ لا يسكنها إلا المارةُ والمسافرون يوماً أو بعض يوم ﴿وكنَّا نحن الوارثين﴾ أي وكنا نحن الوارثين لأملاكهم وديارهم قال في البحر : والآية تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم، من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن، وخفض العيش، فكفروا النعمة وقابلوها بالاشر والبطر فدمرهم الله وخرب ديارهم[3] ﴿وما كان ربك مهلك القرى﴾ أي ما جرت عادة الله جل شأنه أن يهلك أهل القرَى الكافرة ﴿حتَّى يبعث في أمها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا﴾ أي حتى يبعث في أصلها وعاصمتها رسولاً يبلغهم رسالة الله لقطع الحجج والمعاذير ﴿وما كنَّا مهلكي القرى إلاَّ وأهلها ظالمون﴾ أي وما كنا لنهلك القرى إلا وقد استحق أهلها الإهلاك ، لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم ببعثة المرسلين قال القرطبي : أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم ، وفي هذا بيانٌ لعدله وتقدّسه عن الظلم ، ولا يهلكهم ـ مع كونهم ظالمين ـ إلاَّ بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل ، ولا

---

١) البحر المحيط ٧/ ١٢٦ وانظر سبب النزول الذي ذكرناه سابقاً . (٢) البحر المحيط ٧/ ١٢٦ . (٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾

يجعل علمه تعالى بأحوالهم حجة عليهم[1] ﴿وما أُوتيتُم من شيءٍ فمتاعُ الحياة الدنيا وزينتُها﴾ أي وما أعطيتم أيها الناس من مالٍ وخيرٍ فهو متاعٌ قليل تتمتعون به في حياتكم ثم ينقضي ويفنى قال ابن كثير : يخبر تعالى عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة ، والزهرة الفانية ، بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة ، من النعيم العظيم المقيم[2] ﴿وما عند الله خيرٌ وأبقى﴾ أي وما عنده من الأجر والثواب ، والنعيم الدائم الباقي خير وأفضل من هذا النعيم الزائل ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ توبيخٌ لهم أي أفلا تعقلون أن الباقي أفضل من الفاني ؟ قال الإمام الفخر : بيَّن تعالى أن منافع الدنيا مشوبةٌ بالمضارِّ ، بل المضارُّ فيها أكثر ، ومنافع الآخرة غير منقطعة ، بينما منافع الدنيا منقطعة ، ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدماً ، فكيف ونصيب كل أحدٍ من الدنيا كالذرة بالقياس إلى البحر ، فمن لم يرجِّح منافع الآخرة على منافع الدنيا يكون كأنه خارجٌ عن حدّ العقل[3] ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه﴾ أي أفمن وعدناه وعداً قاطعاً بالجنة وما فيها من النعيم المقيم الخالد ، فهو لا محالة مدركه لأن وعد الله لا يتخلف ﴿كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾ ؟ أي كمن متعناه بمتاع زائل ، مشوب بالأكدار ، مملوءٍ بالمتاعب ، مستتبع للحسرة على انقطاعه؟ ﴿ثم هو يومَ القيامة من المحضرين﴾ أي ثم هو في الآخرة من المحضرين للعذاب ، فهل يساوي العاقل بينهما ؟ قال ابن جزي : والآية ايضاحٌ لما قبلها من البون الشاسع بين الدنيا والآخرة ، والمراد بمن وعدناه المؤمنين ، وبمن متعناه الكافرين[4] ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أي واذكر حال المشركين يوم يناديهم الله فيقول لهم على سبيل التوبيخ والتقريع : أين هؤلاء الشركاء والآلهة من الأصنام والأنداد الذين عبدتموهم من دوني ، وزعمتم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم ؟ ﴿قال الذين حقَّ عليهم القول﴾ أي قال رؤساؤهم وكبراؤهم الذين وجب عليهم العذاب لضلالهم وطغيانهم ﴿ربَّنا هؤلاء الذين أغوينا﴾ أي هؤلاء أتباعنا الذين أضللناهم عن سبيلك ﴿أغويناهم كما غوينا﴾ أي أضللناهم كما ضللنا ، لا بالقسر والإكراه ولكن بطريق الوسوسة وتزيين القبيح فضلّوا كما ضللنا نحن ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيّانا يعبدون﴾ أي تبرأنا إليك يا ألله من عبادتهم إيانا ، فما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون أهواءهم وشهواتهم ﴿وقيل ادعوا شركاءكم﴾ أي وقيل للكفار استغيثوا بآلهتكم التي عبدتموها في الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم عذاب الله ، وهذا على سبيل التهكم بهم ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ أي فاستغاثوا بهم فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم ، وهذا من

(١) القرطبي ١٣/٣٠٢ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٠ . (٣) التفسير الكبير ٢٥/ ٢٦ . (٤) التسهيل ٣/ ١٠٩ .

لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

سخافة عقولهم ﴿ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون﴾ أي وتمنَّوا حين شاهدوا العذاب لو كانوا مهتدين قال الطبري : أي فودُّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق[1] ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ توبيخٌ آخر للمشركين أي ويوم يناديهم الله ويسألهم : ماذا أجبتم رسلي ؟ هل صدقتموهم أم كذبتموهم ؟ ﴿فعميت عليهم الأنباء يومئذٍ فهم لا يتساءلون﴾ أي فخفيت عليهم الحجج ، وأظلمت عليهم الأمور ، فلم يعرفوا ما يقولون ، فهم حيارى واجمون ، لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة والحيرة ﴿فأمَّا من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين﴾ أي فأمَّا من تاب من الشرك ، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح فعسى أن يكون من الفائزين بجنات النعيم قال الصاوي : والترجي في القرآن بمنزلة التحقق ، لأنه وعد كريم من ربٍّ رحيم ، ومن شأنه تعالى أنه لا يخلف وعده[2] ﴿وربُّك يخلق ما يشاء ويختار﴾ أي هو تعالى الخالق المتصرف ، يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ، فلا اعتراض لأحدٍ على حكمه قال مقاتل : نزلت في «الوليد بن المغيرة» حين قال ﴿لولا نُزِّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم﴾ ﴿ما كان لهم الخيرةُ﴾ أي ما كان لأحدٍ من العباد اختيار ، إنما الاختيار والإرادة لله وحده ﴿سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزَّه الله العظيم الجليل وتقدس أن ينازعه أحدٌ في ملكه ، أو يشاركه في اختياره وحكمته قال القرطبي : المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه ، ويختار من يشاء لنبوته ، والخيرة له تعالى في أفعاله ، وهو أعلم بوجوه الحكمة ، فليس لأحدٍ من خلقه أن يختار عليه[3] ﴿وربُّك يعلم ما تكنُّ صدورهم وما يعلنون﴾ أي هو تعالى العالم بما تخفيه قلوبهم من الكفر والعداوة للرسول والمؤمنين ، وما يظهرونه على ألسنتهم من الطعن في شخص رسوله الكريم حيث يقولون : ما أنزل الله الوحي إلا على يتيم أبي طالب ! ﴿وهو الله لا إله إلا هو﴾ أي هو جل وعلا اللهُ المستحقُ للعبادة ، لا أحد يستحقها إلا هو ﴿له الحمدُ في الأولى والآخرة﴾ أي له الثناء الكامل في الدنيا والآخرة ، لأنه تعالى المتفضل على العباد بالنعم كلها في الدارين ﴿وله الحكم﴾ أي وله القضاء النافذ والفصل بين العباد ﴿وإليه ترجعون﴾ أي إليه وحده مرجع الخلائق يوم القيامة ، فيجازي كل عاملٍ بعمله .

(١) الطبري ٢٠/٦٣ وهذا على أن ﴿لو﴾ للتمني ، وهو الذي أثبتناه وهو اختيار الطبري ، وقال الزجاج : جواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره : لو كانوا يهتدون لما اتبعوهم ولما رأوا العذاب . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٢٣. (٣) القرطبي ١٣/٣٠٥ بشيء من الاختصار .

البَـــلاَغَـــة : تضمنت الآياتُ الكريمة وجوهاً من البيان والبَديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التشبيه البليغ ﴿بصائر للنـاس﴾ أي أعطيناه التوراة كأنها أنوار لقلوب النـاس ، حذف أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً قال في حاشية البيضاوي : أي مشبهاً بأنوار القلوب من حيث إن القلوب لو كانت خالية عن أنوار التوراة وعلومها لكانت عمياء لا تستبضر ، ولا تعرف حقاً من باطل[١] .

٢ ـ المجاز العقلي ﴿أنشأنا قرونـاً﴾ المراد به الأمم لأنهم يخلقون في تلك الأزمنة فنسب إلى القرون بطريق المجاز العقلي .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿تصيبهم مصيبـة﴾ .

٤ ـ المجاز المرسل ﴿بما قدمـت أيديهم﴾ والمراد بما كسبوا وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل قال الزمخشري : ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي[٢] .

٥ ـ حذف الجواب لدلالة السياق ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبـة﴾ حذف منه الجواب وتقديره : ما أرسلناك يا محمد رسولاً إليهم وهو من باب الإيجاز بالحذف .

٦ ـ التحضيض﴿لولا أوتي مثل ما أُوتي موسـى﴾ أي هلاَّ أُوتي فهي للتحضيض وليسـت حرف امتناع لوجود .

٧ ـ التعجيز ﴿قل فائتوا بكتـاب﴾ فالأمر خرج عن حقيقته إلى معنى التعجيز .

٨ ـ طباقُ السلب ﴿إنك لا تهـدي . . ولكنَّ الله يهدي﴾ .

٩ ـ المجاز العقلي ﴿حَرماً آمنـاً﴾ نسب الأمن إلى الحرم وهو لأهله .

١٠ ـ أسلوب السخرية والتهكم ﴿أين شركائي الذين كنتـم تزعمون﴾ ؟ .

١١ ـ التشبيه المرسل ﴿أغويناهـم كما غوينـا﴾ .

١٢ ـ الاستعارة التصريحية التبعية ﴿فعميت عليهـم الأنباء﴾ قال الشهاب : استعير العمى لعدم الاهتداء ، فهم لا يهتدون للأنباء ، ثم قلب للمبالغة فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم وأصله «فعموا عن الأنبـاء» وضُمِّـن معنـى الخفـاء فعـدي بـ ﴿على﴾ ففيه أنـواعٌ من البلاغـة : الاستعـارة ، والقلـب ، والتضمين[٣] .

١٣ ـ الطباق بين ﴿تكنُّ . . ويعلنون﴾ وبين ﴿الأولى . . والآخرة﴾ وهو من المحسنات البديعية .

---

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٥١٥ . (٢) الكشاف ٣/ ٣٢٠ . (٣) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي .

تـنبيـه : ما ذُكر أن « أبا طالب» مات على غير الإيمان هو الصحيح الذي دلّ عليه الكتاب والسنة ، ونقل عن بعض شيوخ الصوفية أنه أسلم قبل موته ، وهو معارضٌ للنصوص الكريمة ولعلهم أخذوه من بعض أشعار أبي طالب حيث يقول :

ولقد علمتُ بأنَّ دين محمدٍ ... من خير أديان البرية ديناً
والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أُوسَّد في التراب دفيناً

أقول : ماذا يعني هذا الكلام بعد امتناعه عن الدخول في الإسلام والنطق بالشهادة ؟

* * *

قال الله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً . . إلى . . له الحكم وإليه تُرجعون ﴾ من آية (٧١) إلى آية (٨٨) نهاية السورة .

المناسبة : لما ذكر تعالى أنه هو الخالق المختار ، وسفَّه المشركين في عبادتهم لغير الله ، عقَّبه بذكر بعض الأدلة والبراهين الدالة على عظمته وسلطانه ، تذكيراً للعباد بوجوب شكر المنعم ، ثم ذكر قصة « قارون » وهي قصة الطغيان بالمال ، وما كان من نهايته المشئومة حيث خسف الله به وبكنوزه الأرض ، وهذه هي نتيجة الاستعلاء والغرور والطغيان .

اللغة : ﴿سرمداً﴾ السرمد : الدائم الذي لا ينقطع ومنه قول طرفة :

لعمرك ما أمري عليَّ بغمةٍ ... نهاري ولا ليلي عليَّ بسرمد[١]

﴿مفاتحه﴾ جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به ، وأما المفتاح فجمعه مفاتيح . ﴿تنوء﴾ ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله قال ذو الرمَّة :

تنوء بأخراها فلأياً قيامها ... وتمشي الهُوينى عن قريبٍ فتبهر[٢]

﴿العصبة﴾ الجماعة الكثيرة ومثلها العصابة ومنه قوله تعالى ﴿ونحن عصبة﴾ سميت الجماعة عُصبة لأن بعضهم يتعصب لبعض ويتقوى به ﴿ويكأنَّ﴾ قال الجوهري : « ويْ » كلمةُ تعجب وقد تدخل على « كأن » فتقول : ويكأنَّ ، وقيل إنها كلمة تستعمل عند التنبه للخطأ وإظهار الندم قال الخليل ، إن القوم تنبهوا وقالوا نادمين على ما سلف منهم وَيْ[٣] ﴿ظهيراً﴾ معيناً ومساعداً .

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾

التفسير : ﴿قلْ أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين من كفار مكة : أخبروني لو جعل الله عليكم الليل دائماً مستمراً بلا انقطاع إلى يوم القيامة ﴿منْ إلهٌ غير اللهِ يأتيكم بضياءٍ﴾ ؟ أي من هو الإله الذي يقدر على أن يأتيكم بالنور الذي تستضيئون به في حياتكم غيرُ الله تعالى ؟ ﴿أفلا تسمعون﴾ أي أفلا تسمعون سماع فهمٍ وقبول فتستدلوا

(١) القرطبي ١٣/ ٣٠٨.(٢) البحر المحيط ٧/ ١٣٢.(٣) التفسير الكبير للرازي ٢٥/ ١٩.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ * إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

بذلك على وحدانية الله تعالى ؟ ﴿قل أرأيتم إن جعل اللهُ عليكم النهارَ سرمداً إلى يوم القيامة﴾ أي أخبروني لو جعل الله عليكم النهار دائماً مستمراً بلا انقطاع ﴿من إلهٌ غيرُ الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه﴾ أي من هو الإله القادر على أن يأتيكم بليلٍ تستريحون فيه من الحركة والنصب غير الله تعالى ؟ ﴿أفلا تبصرون﴾ أي أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال ؟ ثم نبه تعالى إلى كمال رحمته بالعباد فقال ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار﴾ أي ومن آثار قدرته ، ومظاهر رحمته أن خلق لكم الليل والنهار يتعاقبان بدقةٍ وإحكام ﴿لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ أي لتستريحوا بالليل من نصب الحياة وهمومها وأكدارها ، ولتلتمسوا من رزقه بالمعاش والكسب في النهار ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولتشكروا ربكم على نعمه الجليلة التي لا تُحصى ، ومنها نعمةُ الليل والنهار قال الإمام الفخر : نبه تعالى بهذه الآية على أن الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان ، لأن المرء في الدنيا مضطر إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه ، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ، ولولا الراحة والسكون بالليل ، فلا بدَّ منهما في الدنيا ، وأما في الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم إلى الليل ، فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات[1] ﴿ويوم يناديهم أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ قال ابن كثير : هذا نداءٌ ثانٍ على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر ، يناديهم الرب على رءوس الأشهاد : أين شركائي الذين زعمتموهم في الدنيا[2] ؟ ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً﴾ أي أخرجنا من كل أمةٍ شهيداً منهم يشهد عليهم بأعمالهم وهو نبيُّهم ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ أي هاتوا حجتكم على ما كنتم عليه من الكفر ، وهذا إعذار لهم وتوبيخٌ وتعجيز ﴿فعلموا أنَّ الحقَّ لله﴾ أي فعلموا حينئذٍ أن الحقَّ لله ولرسله ، وأنه لا إله إلا هو ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ما كانوا يتخرصونه في الدنيا من الشركاء والأنداد ، ثم ذكر تعالى قصة « قارون » ونتيجة الغرور والطغيان فقال ﴿إن قارون كانَ من قومِ موسى﴾ أي من عشيرته وجماعته قال ابن عباس : كان ابن عم موسى ﴿فبغى عليهم﴾ أي تجبر وتكبر على قومه ، واستعلى عليهم بسبب ما منحه الله من الكنوز والأموال قال الطبري : أي تجاوز حدَّه في الكبر والتجبر عليهم[3] ﴿وآتيناه من الكُنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوءُ بالعصبةِ أُولي القوة﴾ أي أعطيناه من الأموال الوفيرة ، والكنوز الكثيرة ما يثقل على الجماعة أصحاب القوة حمل مفاتيح

(١) التفسير الكبير ٢٥/ ١١.(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢.(٣) الطبري ٢٠/ ٦٨.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

خزائنه لكثرتها وثقلها فضلاً عن حمل الخزائن والأموال والآية تصويرٌ لما كان عليه قارون من كثرة المال والغنى والثراء **﴿إذ قال له قومه لا تفرح﴾** أي لا تأشر ولا تبطر **﴿إنَّ الله لا يحبُّ الفرحين﴾** أي لا يحب البطرين الذين لا يشكرون الله على إنعامه ، ويتكبرون بأموالهم على عباد الله **﴿ وابتغ فيما آتاك اللهُ الدار الآخرة﴾** أي اطلب فيما أعطاك الله من الأموال رضى الله ، وذلك بفعل الحسنات والصدقات والإنفاق من الطاعات **﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾** قال الحسن : أي لا تضيّع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إيّاه[1] **﴿وأحسنْ كما أحسن الله إليك﴾** أي أحسن إلى عبادِ الله كما أحسن الله إليك **﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾** أي لا تطلب بهذا المال البغي والتطاول على الناس ، والإفساد في الأرض بالمعاصي **﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾** أي لا يحب من كان مجرماً باغياً مفسداً في الأرض **﴿قال إنّما أوتيتُه على علمٍ عندي﴾** لَمّا وعظه قومه أجابهم بهذا على وجه الرد عليهم والتكبر عن قبول الموعظة والمعنى : إنما أُعطيت هذا المال على علمٍ عندي بوجوه المكاسب ، ولولا رضى الله عني ومعرفته بفضلي واستحقاقي له ما أعطاني هذا المال ! قال تعالى رداً عليه **﴿أولَم يعلم أنَّ الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدُّ منه قوةً وأكثر جمعاً﴾** أي أولم يعلم هذا الأحمق المغرور أنَّ الله قد أهلك من قبله من الأمم الخالية من هو أقوى منه بدناً وأكثر مالاً ؟ ! قال البيضاوي : والآية تعجبٌ وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله ، مع علمه بذلك لأنه قرأه في التوراة ، وسمعه من حفاظ التواريخ[2] **﴿ولا يُسأل عن ذُنوبهم المجرمون﴾** أي لا حاجة أن يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم وكميتها لأنه عالمٌ بكل شيء ، ولا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤالهم بل متى حقَّ عليهم العذاب أهلكهم بغتة ، ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بنصيحة قومه ، بل تمادى في غطرسته وغيِّه فقال تعالى **﴿فخرج على قومه في زينته﴾** أي فخرج قارون على قومه في أظهر زينةٍ وأكملها قال المفسرون : خرج ذات يوم في زينةٍ عظيمة بأتباعه الكثيرين ، ركباناً متحلين بملابس الذهب والحرير ، على خيولٍ موشحةٍ بالذهب ، ومعه الجواري والغلمان في موكبٍ حافلٍ باهرٍ **﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾** أي فلما رآه ضعفاء الإيمان ممن تخدعهم الدنيا ببريقها وزخرفها وزينتها قالوا : يا ليت لنا مثل هذا الثراء والغنى الذي أُعطيه قارون **﴿إنه لذو حظٍ عظيم﴾** أي ذو نصيب وافرٍ من الدنيا

(١) وقيل معناه . لا تضيع عمرك بترك الأعمال الصالحات وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد ، وما قاله الحسن وقتادة أظهر وهو اختيار ابن كثير . (٢) البيضاوي ٣/ ٩٥ .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ

﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾ أي وقال لهم العقلاء من أهل العلم والفهم والاستقامة ﴿ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمنَ وعمل صالحاً﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا الكلام فإن جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين خيرٌ مما ترون وتتمنَّون من حال قارون قال الزمخشري : أصل ﴿ويلك﴾ الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع ، والبعث على ترك ما لا يرتضى[1] ﴿ولا يُلقَّاها إلا الصابرون﴾ أي ولا يُعطى هذه المرتبة والمنزلة في الآخرة إلا الصابرون على أمر الله قال تعالى تنبيهاً لنهايته المشئومة ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ أي جعلنا الأرض تغور به وبكنوزه ، جزاءً على عتوه وبطره ﴿فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله﴾ أي ما كان له أحد من الأنصار والأعوان يدفعون عنه عذاب الله ﴿وما كان من المنتصرين﴾ أي وما كان من المنتصرين بنفسه بل كان من الهالكين ﴿وأصبح الذين تمنَّوْا مكانه بالأمس﴾ أي وصار الذين تمنوا منزلته وغناه بالأمس القريب بعد أن شاهدوا ما نزل به من الخسف ﴿يقولون ويكأنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي يقولون ندماً وأسفاً على ما صدر منهم من التمني : اعجبوا أيها القوم من صنع الله ، كيف أن الله يوسِّع الرزق لمن يشاء من عباده ـ بحسب مشيئته وحكمته ـ لا لكرامته عليه ، ويضيِّق الرزق على من يشاء ـ لحكمته وقضائه ابتلاءً ـ لا لهوانه عليه !! قال الزمخشري : ﴿وَيكأن﴾ كلمتان «وَيْ» مفصولة عن «كأنَّ» وهي كلمة تنبيه على الخطأ وتندم ، ومعناه أن القوم تنبهوا على خطئهم في تمنيهم منزلة قارون وتندموا[2] وقالوا ﴿لولا أن مَنَّ الله علينا﴾ أي لولا أنَّ الله لطف بنا ، وتفضَّل علينا بالإِيمان والرحمة ، ولم يعطنا ما تمنيناه ﴿لخسفَ بنا﴾ أي لكان مصيرنا مصير قارون ، وخسف بنا الأرض كما خسفها به ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ أي أعجبُ من فعل الله حيث لا ينجح ولا يفوز بالسعادة الكافرون لا في الدنيا ، ولا في الآخرة . . وإلى هنا تنتهي «قصة قارون» وهي قصة الطغيان بالمال ، بعد أن ذكر تعالى قصة الطغيان بالجاه والسلطان في قصة فرعون وموسى ، ثم يأتي التعقيب المباشر في قوله تعالى ﴿تلك الدارُ الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُواً في الأرض ولا فساداً﴾ الإِشارة للتفخيم والتعظيم أي تلك الدار العالية الرفيعة التي سمعت خبرها ، وبلغك وصفها هي دار النعيم الخالد السرمدي ، التي فيها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، نجعلها للمتقين الذين لا يريدون التكبر

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٤١ . (٢) الكشاف ٣/ ٢٤٢ وهذا الذي قاله الزمخشري هو مذهب الخليل وسيبويه واختاره الجمهور ، قال في الجلالين «ويْ» اسم فعل بمعنى عجب أنا ، والكاف بمعنى اللام والمعنى أعجب لأن الله يبسط ونقل الطبري عن قتادة أن معنى «ويكأن» ألم ترأنَّ ، وأنها كلمة واحدة ، وهو اختيار الطبري ، والله أعلم .

وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

والطغيان ، ولا الظلم والعدوان في هذه الحياة الدنيا **﴿والعاقبةُ للمتقين﴾** أي العاقبة المحمودة للذين يخشون الله ويراقبونه ، ويبتغون رضوانه ويحذرون عقابه **﴿من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها﴾** أي من جاء يوم القيامة بحسنةٍ من الحسنات فإن الله يضاعفها له أضعافاً كثيرة **﴿ومنْ جاءَ بالسيئة فلا يُجْزى الذين عملوا السيئات إلاّ ما كانوا يعملون﴾** أي ومن جاء يوم القيامة بالسيئات فلا يجزى إلا بمثلها ، وهذا من فضل الله على عباده أنه يضاعف لهم الحسنات ولا يضاعف لهم السيئات **﴿إنَّ الذي فرض عليك القرآن﴾** أي إن الذي أنزل عليك يا محمد القرآن وفرض عليك العمل به **﴿لرادُّك إلى مَعَاد﴾** أي لرادُّك إلى مكة كما أخرجك منها ، وهذا وعدٌ من الله بفتح مكة ورجوعه عليه السلام إليها بعد أن هاجر منها قال ابن عباس : معناه لرادك إلى مكة ، وقال الضحاك : لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجُحْفَة اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله عليه هذه الآية[1] **﴿قلْ ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين﴾** أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : ربي أعلم بالمهتدي والضال هل أناأو أنتم؟فهو جلَّ وعلا الذي يعلم المحسن من المسيء ، ويجازي كلاً بعمله ، وهو جواب لقول كفار مكة : إنك يا محمد في ضلالٍ مبين **﴿وما كنتَ ترجو أن يُلقى إليكَ الكتاب إلاّ رحمةً من ربك﴾** أي وما كنت تطمع أن تنال النبوة ، ولا أن ينزل عليك الكتابُ ولكن رحمك الله بذلك ورحم العباد ببعثتك قال الفراء: وهذا استثناء منقطع والمعنى إلا أنّ ربك رحمك فأنزله عليك **﴿فلا تكوننَّ ظهيراً للكافرين﴾** أي لا تكن عوناً لهم على دينهم ، ومساعداً لهم على ضلالهم ، بالمداراة والمجاملة ولكن نابذهم وخالفهم قال المفسرون : دعا المشركون الرسول إلى دين آبائه ، فأُمر بالتحرز منهم وأن يصدع بالحق ، والخطابُ بهذا وأمثاله له عليه السلام ، والمراد أمته لئلا يظاهروا الكفار ولا يوافقوهم **﴿ولا يصدُّنَّك عن آيات الله بعد إذْ أنزلت إليك﴾** أي ولا تلتفت إلى هؤلاء المشركين ، ولا تركن إلى قولهم فيصدوك عن اتباع ما أنزل الله إليك من الآيات البينات **﴿وادْعُ إلى ربِّك﴾** أي وادع الناس إلى توحيد ربك وعبادته **﴿ولا تكوننَّ من المشركين﴾** أي بمسايرتهم على أهوائهم ، فإن من رضي بطريقتهم كان منهم **﴿ولا تدع مع الله**

(١) تفسير ابن الجوزي ٦/ ٢٤٩ ومختصر ابن كثير ٣/ ٢٦.

﴿إلهاً آخر﴾ أي لا تعبد إلهاً سوى الله ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود بحقٍ إلا الله تعالى قال البيضاوي : وهذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم[1] ﴿كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه﴾ أي كل شيء يفنى وتبقى ذاتُه المقدسة ، أطلق الوجه وأراد ذات الله جلَّ وعلا قال ابن كثير : وهذا إخبار بأنه تعالى الدائم الباقي ، الحيُّ القيوم ، الذي تموت الخلائق ولا يموت ، فعبَّر بالوجه عن الذات كقوله ﴿كلُّ من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ ﴿له الحكم وإليه تُرجعون﴾ أي له القضاء النافذ في الخلق ، وإليه مرجعهم جميعاً يوم المعاد لا إلى أحدٍ سواه .

البَـلاغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التبكيت والتوبيخ ﴿مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بضياء﴾ ؟ ومثله ﴿يأتيكم بليل﴾ ؟ .

٢ ـ اللَّف والنشر المرتب ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار﴾ جمع الليل والنهار ثم قال ﴿لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ فأعاد السكن إلى الليل،والابتغاء لطلب الرزق إلى النهار ، ويسمى هذا عند علماء البديع اللف والنشر المرتب ، لأن الأول عاد على الأول ، والثاني عاد على الثاني وهو من المحسنات البديعية .

٣ جناس الاشتقاق ﴿لا تفرح . . الفرحين﴾ ومثله ﴿الفساد . . والمفسدين﴾ .

٤ ـ تأكيد الجملة بـ ﴿إنَّ﴾ و ﴿اللام﴾ ﴿إنه لذو حظٍ عظيم﴾ لأن السامع شاك ومتردِّد .

٥ ـ الكناية ﴿تمنوا مكانه بالأمس﴾ كنَّى عن الزمن الماضي القريب بلفظ الأمس .

٦ ـ الطباق ﴿يبسط الرزق . . ويقدر﴾ .

٧ ـ المقابلة اللطيفة ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يُجْزى . .﴾ الآية .

٨ ـ المجاز المرسل ﴿إلا وجهه﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي ذاته المقدسة ففيه مجاز مرسل .

لطيفـة : قال بعض العلماء : من لم تشبعه القناعة لم يكفه ملك قارون وأنشدوا :

هي القناعة لا تبغي بها بدلاً … فيها النعيم وفيها راحةُ البدن
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها … هل راح منها بغير القطن والكفن ؟

« تم بعونه تعالى تفسير سورة القصص » .

* * *

(١) البيضاوي ٢/٩٦.



بين يدي السورة

* سورة العنكبوت مكية وموضوعها العقيدة في أصولها الكبرى « الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » ومحور السورة الكريمة يدور حول الإيمان و« سنة الابتلاء » في هذه الحياة لأن المسلمين في مكة كانوا في أقسى أنواع المحنة والشدَّة ، ولهذا جاء الحديث عن موضوع الفتنة والابتلاء في هذه السورة مطولاً مفصلاً وبوجه خاص عند ذكر قصص الأنبياء .

* تبتدىء السورة الكريمة بهذا البدء الصريح ﴿الـم . أحسب الناسُ أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون﴾ ؟ وتمضي السورة تتحدث عن فريق من الناس يحسبون الإيمان كلمةً تقال باللسان ، فإذا نزلت بهم المحنة والشدة انتكسوا إلى جحيم الضلال ، وارتدوا عن الإسلام تخلصاً من عذاب الدنيا ، كأن عذاب الآخرة أهون من عذاب الدنيا ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . .﴾ الآيات .

* وتمضي السورة تتحدث عن « محنة الأنبياء » وما لاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله ، بدءاً بقصة نوح ، ثم إبراهيم ، ثم لوط ، ثم شعيب ، وتتحدث عن بعض الأمم الطغاة المتجبرين كعاد ، وثمود ، وقارون ، وهامان وغيرهم وتذكر ما حلَّ بهم من الهلاك والدمار ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ الآيات .

* وفي قصص الأنبياء دروسٌ من المحن والابتلاء ، تتمثل في ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة ، فهذا نوح عليه السلام يمكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله فما يؤمن معه إلا قليل ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ وهذا أبو الأنبياء إبراهيم الخليل يحاول هداية قومه بكل وسيلة ، ويجادلهم بالحجة والبرهان فما تكون النتيجة إلا العلو والطغيان ﴿قالوا اقتلوه أو حرِّقوه فأنجاه الله من النار . .﴾ الآيات .

* وفي قصة لوط يظهر التبجح بالرذيلة دون خجل أو حياء ﴿ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ الآيات وبعد ذلك الاستعراض السريع لمحنة الأنبياء ، تمضي

السورة الكريمة تبيّن صدق رسالة محمد ﷺ فهو رجل أميٌّ لم يقرأ ولم يكتب ثم جاءهم بهذا الكتاب المعجز ، وهذا من أعظم البراهين على أنه كلام رب العالمين ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾ وتنتقل السورة للحديث عن الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية منبثقة من هذا الكون الفسيح ، ثم تختم ببيان جزاء الذين صبروا أمام المحن والشدائد وجاهدوا بأنواع الجهاد النفسي والمالي ، ووقفوا في وجه المحنة والابتلاء ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين﴾ .

التسمية : سميت « سورة العنكبوت » لأن الله ضرب العنكبوت فيها مثلاً للأصنام المنحوتة ، والآلهة المزعومة ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ..﴾ الآيات .

اللغة : ﴿فتنة﴾ الفتنة : الابتلاء والاختبار ﴿أثقالهم﴾ جمع ثقل وهو الحمل الثقيل الذي ينوء به الإنسان ، والمراد بالأثقال هنا الذنوب والأوزار ﴿لبث﴾ أقام ومكث ﴿إفكاً﴾ كذباً وزوراً ﴿تُقْلبون﴾ تُرجعون وتُردون .

سبب النزول : عن سعد بن أبي وقاص قال : « كنت رجلاً باراً بأمي فلما أسلمتُ ، قالت : ما هذا الدين الذي أحدثت يا سعد ؟ لتدَعن دينك هذا أو لا آكلُ ولا أشربُ حتى أموت فتعيَّر بي فيقال : يا قاتل أمه ، قلتُ : لا تفعلي يا أماه ، فإني لا أدع ديني هذا لشيءٍ أبداً ، قال : فمكثتْ يوماً وليلةً لا تأكل ، فأصبحت قد جُهدت ، ثم مكثت يوماً آخر وليلةً لا تأكل ، فلما رأيتُ ذلك قلت : تعلمين واللهِ يا أمَّاه لو كانت لكِ مائةُ نفسٍ فخرجت نفساً نفْساً ما تركتُ ديني هذا لشيءٍ أبداً ، فإن شئت فكلي ، وإن شئتِ فَدعي ، فلما رأتْ ذلك أكلت فأنزل الله هذه الآية ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حُسناً وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما ..﴾ الآية[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

التفسير : ﴿الم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[2] ﴿أحسبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفْتنون﴾ ؟ الهمزة للاستفهام الإنكاري أي أظنَّ الناسُ أن يُتركوا من غير افتتان لمجرد قولهم باللسان آمنا ؟ لا ليس كما ظنوا بل لا بدَّ من امتحانهم ليتميز الصادق من المنافق قال ابن جزي : نزلت في قومٍ من المؤمنين كانوا بمكة مستضعفين ، منهم « عمار بن ياسر » وغيره ، وكان كفار قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، فضاقت صدورهم بذلك فآنسهم الله بهذه الآية ووعظهم وأخبرهم أن ذلك اختبار ، ليوطنوا أنفسهم على الصبر على الأذى ، والثبات على الإيمان ، وأعلمهم أن تلك سيرته في

(١) أسباب النزول للواحدي ١٩٥ وفي بعض الروايات كان أولادها إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها أي ادخلوا فيه عوداً ليفتحوه .

(٢) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ﴾

عباده يسلِّط الكفار على المؤمنين ليمحصهم بذلك ، ويظهر الصادق في ايمانه من الكاذب[1] **﴿ولقد فتنَّا الذين من قبلهم﴾** أي ولقد اختبرنا وامتحنا من سبقهم بأنواع التكاليف والمصائب والمحن قال البيضاوي : والمعنى أن ذلك سنة قديمة ، جارية في الأمم كلها ، فلا ينبغي أن يتوقع خلافه[2] **﴿فليعلمنَّ اللهُ الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين﴾** أي فليميزنَّ الله بين الصادقين في دعوى الإيمان ، وبين الكاذبين فيه ، وعبَّر عن الصادقين بلفظ الفعل **﴿الذين صدقوا﴾** وعن الكاذبين باسم الفاعل **﴿الكاذبين﴾** للإشارة إلى أن الكاذبين وصفهم مستمر وأن الكذب راسخ فيهم بخلاف الصادقين فإن الفعل يفيد التجدد ، قال الإمام الفخر : إن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر ورسوخه فيه ، والفعل الماضي لا يدل عليه كما يقال : فلانٌ شرب الخمر ، وفلانٌ شاربُ الخمر ، فإنه لا يفهم من صيغة الفعل الثبوتُ والرسوخ[3] **﴿أم حسب الَّذين يعملون السَّيئات أنْ يسبقونا﴾** أي أيظن المجرمون الذين يرتكبون المعاصي والموبقات أنهم يفوتون من عقابنا ويعجزوننا ؟ **﴿ساءَ ما يحكمون﴾** أي بئس ما يظنون قال الصاوي : والآية انتقال من توبيخ الى توبيخ أشد ، فالأول توبيخ للناس على ظنهم أنهم يفوتون عذاب الله ويفرون منه مع دوامهم على كفرهم[4] **﴿من كان يرجوا لقاء اللّه فإن أجل الله لآتٍ﴾** لما بيَّن تعالى أن العبد لا يترك في الدنيا سُدى ، بيَّن هنا أن من اعترف بالآخرة وعمل لها لا يضيع عمله ، ولا يخيب أمله والمعنى من كان يرجو ثواب الله فليصبر في الدنيا على المجاهدة في طاعة الله حتى يلقى الله فيجازيه ، فإن لقاء الله قريب الإتيان ، وكلُّ ما هو آتٍ قريب ، والآية تسلية للمؤمنين ووعدٌ لهم بالخير في دار النعيم **﴿وهو السميع العليم﴾** أي هو تعالى السميع لأقوال العباد ، العليم بأحوالهم الظاهرة والباطنة **﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾** أي ومن جاهد نفسه بالصبر على الطاعات ، والكف عن الشهوات ، فمنفعة جهاده إنما هي لنفسه **﴿إنَّ اللهَ لغنيٌّ عن العالمين﴾** أي مستغنٍ عن العباد ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح **﴿لنكفرنَّ عنهم سيئاتهم﴾** أي لنمحونَّ عنهم سيئاتهم التي سلفت منهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح **﴿ولنجزينَّهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾** أي ونجزيهم بأحسن أعمالهم الصالحة وهي الطاعات **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حُسناً﴾** أي أمرناه أمراً مؤكداً بالإحسان إلى والديه غاية الإحسان ، لأنهما سبب وجوده ولهما عليه غاية الفضل والإحسان ، الوالد

(١) التسهيل ٣/ ١١٣ . (٢) البيضاوي ٢/ ٩٧ . (٣) التفسير الكبير ٢٥/ ٢٩ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٣٠ .

عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

بالإنفاق والوالدة بالإشفاق قال الصاوي : وإنما أمر الله الأولاد ببر الوالدين دون العكس ، لأن الأولاد جُبلوا على القسوة وعدم طاعة الوالدين ، فكلفهم الله بما يخالف طبعهم ، والآباء مجبولون على الرحمة والشفقة بالأولاد فوكلهم لما جُبلوا عليه[1] ﴿وإن جاهداك لتُشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تُطعهما﴾ أي وإن بذلا كلَّ ما في وسعهما ، وحرصا كلَّ الحرص على أن تكفر بالله وتشرك به شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم ، فلا تطعهما في ذلك لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله ﴿إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي إليَّ مرجع الخلائق جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم ، فأجازي كلاً بما عمل ، وفيه وعدٌ حسن لمن برَّ والديه واتبع الهدى ، ووعيدٌ لمن عقَّ والديه واتبع سبيل الرَّدى ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنَّهم في الصالحين﴾ أي لندخلنَّهم في زمرة الصالحين في الجنة قال القرطبي : كرَّر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحريك النفوس الى نيل مراتبهم ، وفي ﴿الصالحين﴾ مبالغة أي الذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته[2] ، ولما ذكر تعالى ما أعده للمؤمنين الخلَّص ذكر حال المنافقين المذبذبين فقال ﴿ومن النَّاس من يقول آمنَّا بالله . فإذا أُوذي في اللهِ جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ أي ومن الناس فريقٌ يقولون بألسنتهم آمنا بالله ، فإذا أُوذي أحدهم بسبب إيمانه ارتد عن الدين وجعل ما يصيبه من أذى الناس سبباً صارفاً له عن الايمان كعذاب الله الشديد الذي يصرف الإنسان عن الكفر قال المفسرون : والتشبيه ﴿كعذاب الله﴾ من حيث إن عذاب الله مانع للمؤمنين من الكفر ، فكذلك المنافقون جعلوا أذاهم مانعاً لهم من الايمان ، وكان مقتضى إيمانهم أن يصبروا ويتشجعوا ، ويروا في العذاب عذوبة ، وفي المحنة منحة ، فإن العاقبة للمتقين قال الامام الفخر : أقسام المكلفين ثلاثة : مؤمنٌ ظاهر بحسن اعتقاده ، وكافرٌ مجاهر بكفره وعناده ، ومذبذبٌ بينهما يظهر الايمان بلسانه ويضمر الكفر في فؤاده ، فلما ذكر تعالى القسمين بقوله ﴿فليعلمنَّ الله الذين صدقواوليعلمنَّ الكاذبين﴾ ذكر القسم الثالث هنا ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ واللطيفة في الآية أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر ، وخسَّة المنافق الكافر ، فقال هناك : أُوذي المؤمن في سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه ، وأوذي المنافق الكافر فترك الله بنفسه ، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم ويكون قلبه مطمئناً بالايمان ، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية[3] ﴿ولئن جاء نصرٌ من ربك ليقولُنَّ إنا كنا معكم﴾ أي ولئن جاء نصرٌ قريب للمؤمنين ، وفتح ومغانم قال أولئك المذبذبون : إنا كنا معكم ننصركم على أعدائكم ، فقاسمونا فيما حصل لكم من الغنائم قال تعالى رداً عليهم ﴿أوَليس اللهُ بأعلم بما في

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٣١ . (٢) القرطبي ١٣/ ٣٢٩ . (٣) التفسير الكبير ٢٥/ ٣٧ .

ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾

صدور العالمين﴾ ؟ استفهام تقرير أي أوليس الله هو العالم بما انطوت عليه الضمائر من خير وشر ، وبما في قلوب الناس من إيمان ونفاق ؟ بلى إنه بكل شيء عليم ، ثم أكد تعالى ذلك بقوله **﴿وليعْلمنَّ اللهُ الذين آمنوا وليعلمنَّ المنافقين﴾** أي وليُظهرنَّ الله لعباده حال المؤمنين وحال المنافقين حتى يتميزوا فيفتضح المنافق ، ويظهر شرف المؤمن الصادق قال المفسرون : والمراد **﴿وليعلمنَّ الله﴾** إظهار علمه للناس حتى يصبح معلوماً لديهم ، وإلا فالله عالم بما كان ، وما يكون ، وما هو كائن لا تخفى عليه خافية ، فهو إذاً علمُ إظهار وإبداء ، لا علمُ غيبٍ وخفاء بالنسبة للّه تعالى ، وقد فسَّر ابن عباس العلم بمعنى الرؤية[1] **﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾** أي قال الكفار للمؤمنين اكفروا كما كفرنا ، واتَّبعوا ديننا ونحن نحمل عنكم الإثم والعقاب ، إن كان هناك عقاب قال ابن كثير : كما يقول القائل : افعلْ هذا وخطيئتك في عنقي[2] ، فإن قيل **﴿ولْنحمِلْ﴾** صيغة أمر ، فكيف يصح أمر النفس من الشخص ؟ فنقول : الصيغةُ أمرٌ والمعنى شرطٌ وجزاء أي إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم **﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾** أي وما هم حاملين شيئاً من خطاياهم ، لأنه لا يحمل أحدٌ وزر أحد **﴿إنهم لكاذبون﴾** أي وإنهم لكاذبون في ذلك ، ثم قال تعالى **﴿وليحملنَّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾** أي وليحملُنَّ أوزارهم وأوزار من أضلوهم دون أن ينقص من أوزار أولئك شيء كما في الحديث (ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتَّبعه من غير أن ينْقص من آثامهم شيء)[3] **﴿وليُسألنَّ يوم القيامة﴾** أي وليسألنَّ سؤال توبيخ وتقريع **﴿عما كانوا يفترون﴾** أي عما كانوا يختلقونه من الكذب على الله عز وجل ، ثم ذكر تعالى لرسوله ﷺ قصة نوح تسليةً له عما يلقاه من أذى المشركين فقال **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً﴾** أي ولقد بعثنا نوحاً الى قومه فمكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم الى توحيد الله جلَّ وعلا ، وكانوا عبدة أصنام فكذبوه **﴿فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾** أي فأهلكهم الله بالطوفان وهم مصرّون على الكفر والضلال قال أبو السعود : والطوفان : كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة ، من السيل والريح والظلام ، وقد غلب على طوفان الماء[4] قال الرازي : وفي قوله **﴿وهم ظالمون﴾** إشارة الى لطيفة ، وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم ، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم ولهذا قال **﴿وهم ظالمون﴾** يعني أهلكهم وهم على

(١) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير في هذا الشأن ٣/ ٢٨ من المختصر . (٢) ابن كثير للمختصر ٣/ ٣٠ . (٣) الحديث في الصحيحين .
(٤) أبو السعود ٤/ ١٦٦ .

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ﴾

ظلمهم[1] ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ أي فأنجينا نوحاً من الغرق ومن ركب معه في السفينة من أهله وأولاده وأتباعه المؤمنين ﴿وجعلناها آيةً للعالمين﴾ أي وجعلنا تلك الحادثة الهائلة عظة وعبرة للناس بعدهم يتعظون بها ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه﴾ قال ابن كثير : يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله « إبراهيم » إمام الحنفاء ، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له في التقوى ، وطلب الرزق منه وحده ، وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم لا مُسدي لها غيره[2] ﴿ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي عبادة الله وتقواه خير لكم من عبادة الأوثان إن كنتم تعلمون الخير من الشر وتفرقون بينهما ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً﴾ أي أنتم لا تعبدون شيئاً ينفع أو يضر ، وإنما تعبدون أصناماً من حجارة صنعتموها بأيديكم ﴿وتخلقون إفكاً﴾ أي وتصنعون كذباً وباطلاً قال ابن عباس :تنحتون وتصورون إفكاً[3] ﴿إنَّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً﴾ أي إن هؤلاء الذين تعبدونهم لا يقدرون على أن يرزقوكم ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾ أي فاطلبوا الرزق من الله وحده ، فإنه القادر على ذلك ﴿واعبدوه واشكروا له﴾ أي وخصوه وحده بالعبادة واخشعوا واخضعوا له ، واشكروه على نعمه التي أنعم بها عليكم ﴿إليه تُرجعون﴾ أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة فيجازي كل عاملٍ بعمله ﴿وإن تُكذبوا فقد كذب أممٌ من قبلكم﴾ لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد أي وإن تكذبوني فلن تضروني بتكذيبكم وإنما تضرون بأنفسكم فقد سبق قبلكم أمم كذبوا رسلهم فحلَّ بهم عذاب الله ، وسيحل بكم ما حلَّ بهم[4] ﴿وما على الرَّسول إلا البلاغُ المُبين﴾ أي وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله ، وليس عليه هداية الناس قال الطبري : ومعنى ﴿البلاغ المبين﴾ أي الذي يبينُ لمن سمعه ما يُراد به ، ويفهم منه ما يعني به[5] ﴿أولمْ يروا كيف يُبدىءُ الله الخلق ثمَّ يُعيده﴾ الاستفهام للتوبيخ لمنكري الحشر أي أولم ير المكذبون بالدلائل الساطعة كيف خلق تعالى الخلق ابتداءً من العدم ، فيستدلون بالخلقة الأولى على الإعادة في الحشر ؟ قال قتادة : المعنى أولم يروا بالدلائل والنظر كيف يجوز أن يعيد الله الأجسام بعد الموت ؟ ﴿إنَّ ذلك على الله

(١) التفسير الكبير ٢٥/ ٤٢ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٢ . (٣) هذا هو الظاهر أنها من الخلق وهو قول مجاهد والحسن واختاره ابن جرير ، وقيل أنه من الاختلاق أي تختلقون وتقولون الكذب . (٤) قال ابن كثير : والظاهر من السياق ان كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام ، يحتج به عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله ﴿فما كان جواب قومه﴾ وذهب الإمام الطبري إلى أن هذا من كلام الله تعالى لكفار مكة ويراد به تسلية النبيﷺ وليس من كلام إبراهيم ، وما ذهب إليه ابن كثير أظهر والله أعلم . (٥) الطبري ٢٠/ ٨٩ .

يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

يسير﴾ أي سهل عليه تعالى فكيف ينكرون البعث والنشور ؟ فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة ، قال القرطبي : ومعنى الآية على ما قاله البعض : أولم يروا كيف يبدىء الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبداً ، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً ، وخلق من الولد ولداً ، وكذلك سائر الحيوان ، فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد ، فهو القادر على الإعادة لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون[1] **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾** أي قل لهؤلاء المنكرين للبعث سيروا في أرجاء الأرض فانظروا كيف أن الله العظيم القدير خلق الخلق على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم ، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم ، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم الله ، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله عز وجل ! **﴿ثمَّ اللَّه يُنشيء النشأة الآخرة﴾** أي ثم هو تعالى ينشئهم عند البعث نشأةً أخرى **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾** أي لا يعجزه تعالى شيء ومنه البدء والإعادة **﴿يعذّب من يشاءُ ويرحم من يشاء﴾** أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فله الخلق والأمر ، لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون **﴿وإليه تُقلبون﴾** أي وإليه تُرجعون يوم القيامة **﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السَّماء﴾** أي لا تفوتون من عذاب الله ، وليس لكم مهربٌ في الأرض ولا في السماء قال القرطبي : والمعنى لو كنتم في السماء ما أعجزتم الله كقوله **﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾**[2] **﴿وما لكم من دون اللهِ من ولي ولا نصير﴾** أي ليس لكم غير الله وليٌّ يحميكم من بلائه ، ولا نصير ينصركم من عذابه **﴿والذين كفروا بآياتِ الله ولقائه﴾** أي كفروا بالقرآن والبعث **﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾** أي أولئك المنكرون الجاحدون قنطوا من رحمتي قال ابن جرير : وذلك في الآخرة عند رؤية العذاب[3] **﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾** أي لهم عذاب موجع مؤلم **﴿فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا اقتلوه أو حرِّقوه﴾** أي فما كان ردُّ قومه عليه حين دعاهم إلى الله ونهاهم عن الأصنام إلا أن قال كبراؤهم المجرمون : اقتلوه لتستريحوا منه أو حرِّقوه بالنار **﴿فأنجاه الله من النار﴾** أي فألقوه في النار فجعلها برداً وسلاماً عليه **﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾** أي إنَّ في إنجائنا لإبراهيم من النار لدلائل وبراهين ساطعة على قدرة الله لقوم يصدقون بوجود الله وكمال قدرته وجلاله

(١) القرطبي ١٣/ ٣٣٦ . (٢) نفس المرجع السابق ١٣/ ٣٣٧ . (٣) الطبري ٢٠/ ٩٠ .

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً﴾ أي قال ابراهيم لقومه توبيخاً لهم وتقريعاً : إنما عبدتم هذه الأوثان والاصنام وجعلتموها آلهة مع الله **﴿مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾** أي من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم في هذه الحياة باجتماعكم على عبادتها **﴿ثم يوم القيامةِ يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾** أي ثم في الآخرة ينقلب الحال فتصبح هذه الصداقة والمودة عداوةً وبغضاء حيث يقع التناكر ويتبرأ القادة من الأتباع ويلعن الأتباع القادة ، لأن صداقتهم في الدنيا لم تكن من أجل الله **﴿ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾** أي ومصيركم جميعاً جهنم وليس لكم ناصر أو معين يخلصكم منها **﴿فآمن له لوطٌ﴾** أي فآمن معه لوط وصدَّقه وهو ابن أخيه وأول من آمن به لما رأى من الآيات الباهرة **﴿وقال إني مهاجرٌ إلى ربي﴾** أي وقال الخليل إبراهيم ، إني تاركٌ وطني ومهاجر من بلدي رغبة في رضى الله قال المفسرون : هاجر من سواد العراق الى فلسطين والشام ابتغاء إظهار الدين والتمكن من نشره **﴿إنه هو العزيز الحكيم﴾** أي هو العزيز الذي لا يذل من اعتمد عليه ، الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها **﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾** أي وهبنا لإبراهيم ـ لما فارق قومه في الله ـ ولداً صالحاً هو إسحق وولد ولدٍ وهو يعقوب بن اسحاق **﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾** أي خصصناه بهذا الفضل العظيم حيث جعلنا كل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته ، وجعلنا الكتب السماوية نازلةً على الأنبياء من بنيه قال ابن كثير : وهذه خصلة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً ، وجعله إماماً للناس ، أن جعل الله في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبيٌ بعد إبراهيم إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة ولده « يعقوب » ولم يوجد نبي من سلالة « إسماعيل » سوى النبي العربي عليه أفضل الصلاة والتسليم **﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾** أي وتركنا له الثناء الحسن في جميع الأديان **﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾** أي وهو في الآخرة في عداد الكاملين في الصلاح ، وهذا ثناءٌ عظيم على أب الأنبياء إبراهيم عليه السلام .

البـلاغـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا﴾ .

٢ ـ الطباق بين ﴿صدقوا . . والكاذبين﴾ وبين ﴿آمنوا . . والمنافقين﴾ وبين ﴿يعذب . . ويرحم﴾ وبين ﴿يبدىء ويعيد﴾ .

٣ ـ التأكيد بإنَّ واللام ﴿فإن أجل الله لآت﴾ لأن المخاطب منكر .
٤ ـ صيغة المبالغة ﴿السميع العليم﴾ .
٥ ـ الجناس غير التام ﴿يسير . . وسيروا﴾ .
٦ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿فتنة الناس كعذاب الله﴾ حذف منه وجه الشبه فهو مجمل .
٧ ـ التفنن في التعبير ﴿ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ لم يقل إلا خمسين سنة تفنناً لأن التكرار في الكلام الواحد مخالف للبلاغة إلا إذا كان لغرضٍ من تفخيم او تهويل مثل ﴿القارعة ما القارعة﴾ .
٨ ـ أسلوب الإطناب ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً . . إن الذين تعبدون من دون الله﴾ لغرض التشنيع عليهم في عبادة الاوثان .
٩ ـ أسلوب الإيجاز ﴿اقتلوه أو حرقوه﴾ أي حرقوه في النار ثم قال ﴿فأنجاه الله﴾ أي ففعلوا فأنجاه الله من النار .
١٠ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿وليحملن أثقالهم﴾ شبّه الذنوب بالأثقال لأنها تثقل كاهل الانسان .

قال الله تعالى : ﴿ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة . . إلى . . والله يعلم ما تصنعون﴾ من آية (٢٨) إلى نهاية آية (٤٥) .

المَنَاسَبَة : لما ذكر تعالى قصة نوح وإبراهيم ، وما فيهما من مواطن العظة والعبرة ، ذكر هنا قصص الأنبياء « لوط ، شعيب ، هود ، صالح » على سبيل الاختصار لبيان عاقبة الله في المكذبين . . وكلٌ ذلك لتأكيد ما ورد في صدر السورة الكريمة من أن الابتلاء سنة الحياة ، وأنه من السنن الكونية على مر العصور والدهور .

اللغَة : ﴿الفاحشة﴾ الفعلة المتناهية في القبح قال أهل اللغة : الفاحشةُ : القبيح الظاهر قبحه ، وكل فعلٍ زاد في القبح والشناعة فهو فاحشة ﴿ناديكم﴾ النادي : المجلس الذي يجتمع فيه القوم للسَّمر أو المشورة أو غيرهما ﴿تعثوا﴾ العُثُوُّ والعُثيُّ أشدُّ الفساد يقال : عثي يعثى ، وعثا يعثو بمعنى واحد[1] ﴿رجزاً﴾ عذاباً ﴿جاثمين﴾ جثم : إذا قعد على ركبتيه ﴿سابقين﴾ فائتين من عذابنا ﴿أوهن﴾ أضعف ، والوهنُ : الضعف .

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ

التفسِير : ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ أي واذكر رسولنا لوطاً عليه السلام حين قال لقومه ﴿إنكم لتأتون الفاحشة﴾ أي إنكم يا معشر القوم لترتكبون الفعلة المتناهية في القبح ﴿ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين﴾ أي لم يسبقكم بهذه الشنيعة ، والفعلة القبيحة ـ وهي اللواطة ـ أحدٌ من الخلق ، ثم فسر تلك الشنيعة فقال ﴿إنكم لتأتون الرجال﴾ أي إنكم لتأتون الذكور في الأدبار وذلك منتهى القذارة والخسة قال المفسرون : لم يقدم أحد قبلهم عليها اشمئزازاً منها في طباعهم لإفراط قبحها حتى أقدم عليها

(١) القرطبي ١٣/٣٤٣ .

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾

قوم لوط ، ولم ينز ذكرٌ على ذكر قبل قوم لوط[1] ﴿وتقطعون السبيل﴾ أي وتقطعون الطريق على المارة بالقتل وأخذ المال ، وكانوا قطاع الطريق قال ابن كثير : كانوا يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم[2] ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ أي وتفعلون في مجلسكم ومنتداكم ما لا يليق من أنواع المنكرات علناً وجهاراً ، أما كفاكم قبحُ فعلكم حتى ضممتم إليه قبح الإظهار ! ؟ قال مجاهد : كانوا يأتون الذكور أمام الملأ يرى بعضهم بعضاً ، وقال ابن عباس : كانوا يحذفون بالحصى من مرَّ بهم مع الفحش في المزاح ، وحل الإزار ، والصفير وغير ذلك من القبائح ﴿فما كان جوابَ قومه﴾ أي فما كان ردُّ قومه عليه حين نصحهم وذكّرهم وحذّرهم ﴿إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله﴾ أي إلا أن قالوا على سبيل الاستهزاء : ائتنا يا لوط بالعذاب الذي تعدنا به ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أي إن كنت صادقاً فيما تهددنا به من نزول العذاب قال الإمام الفخر : فإن قيل إن الله تعالى قال ههنا ﴿إلا أن قالوا ائتنا﴾ وقال في موضع آخر ﴿إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم﴾ فكيف وجه الجمع بينهما ؟ فنقول : إن لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد ، مكرراً عليهم النهي والوعيد ، فقالوا أولاً : ائتنا بعذاب الله ، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا آل لوط[3] ، ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة من الله ﴿قال ربِّ انصرني على القوم المفسدين﴾ أي قال لوط ربِّ أهلكهم وانصرني عليهم فإنهم سفهاء مفسدون لا يُرجى منهم صلاح وقد أغرقوا في الغيِّ والفساد قال الرازي : واعلم أن نبياً من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾ فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال ، ولا يرجى منهم صلاح في المآل طلب لهم العذاب[4] ﴿ولما جاءتْ رسُلنا إبراهيم بالبُشرى﴾ المراد بالرسل هنا « الملائكة » والبشرى هي تبشير ابراهيم بالولد ، أي لما جاءت الملائكة تبشّر إبراهيم بغلام حليم ﴿قالوا إنّا مهلكوا أهل هذه القرية﴾ أي جئنا لنهلك قرية قوم لوط ﴿إنَّ أهلها كانوا ظالمين﴾ أي لأنَّ أهلها ممعنون في الظلم والفساد ، طبيعتهم البغيُ والعناد قال المفسرون : لما دعا لوط على قومه ، استجاب الله دعاءه ، وأرسل ملائكته لإهلاكهم ، فمرّوا بطريقهم على إبراهيم أولاً فبشروه بغلامٍ وذرية صالحة ، ثم أخبروه بما أُرسلوا من أجله ، فجادلهم بشأن ابن أخيه لوط ﴿قال إنَّ فيها لوطاً﴾ أي كيف تهلكون أهل القرية وفيهم هذا النبي الصالح « لوط » ؟ ﴿قالوا نحن أعلمُ بمن فيها﴾ أي نحن أعلم به وبمن فيها من المؤمنين قال الصاوي : وهذا بعد المجادلة التي تقدمت في سورة هود ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ حيث قال لهم : أتهلكون قريةً فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا لا ، إلى أن

(١) نقلاً عن البحر المحيط ٧/ ١٤٩ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٥ . (٣) التفسير الكبير ٢٥/ ٥٩ . (٤) التفسير الكبير ٢٥/ ٥٩ .

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾

قال : أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا لا فقال لهم **﴿إن فيها لوطاً﴾** فأجابوه بقولهم **﴿نحن أعلم بمن فيها﴾**[1] ثم بشروه بإنجاء لوط والمؤمنين **﴿لننجينَّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾** أي سوف ننجيه مع أهله من العذاب ، إلا امرأته فستكون من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على الكفر ، ثم ساروا من عنده فدخلوا على « لوط » في صورة شبان حسان **﴿ولمَّا أن جاءت رسُلنا لوطاً سيء بهم وضاقَ بهم ذرعاً﴾** أي ولما دخلوا على لوط حزن بسببهم ، وضاق صدره من مجيئهم لأنهم حسان الوجوه في صورة أضياف ، فخاف عليهم من قومه ، فأعلموه أنهم رسل ربه **﴿وقالوا لا تخف ولا تحزن﴾** أي لا تخف علينا ولا تحزن بسببنا ، فلن يصل هؤلاء المجرمون إلينا **﴿إنّا منجوك وأهلك إلا امرأتكَ كانت من الغابرين﴾** أي كانت من الهالكين الباقين في العذاب **﴿إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السَّماء بما كانوا يفسقون﴾** أي منزلون عليهم عذاباً من السماء بسبب فسقهم المستمر قال ابن كثير : وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها الى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وأرسل عليهم حجارة من سجيل منضود ، وجعل الله مكانها بحيرةً خبيثةً منتنة ، وجعلهم عبرةً الى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد[2] **﴿ولقد تركنا منها آيةً بينة﴾** أي ولقد تركنا من هذه القرية علامةً بينةً واضحة ، هي آثار منازلهم الخربة **﴿لقوم يعقلون﴾** أي لقومٍ يتفكرون ويتدبرون ويستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار ، ثم أخبر تعالى عن قصة شعيب فقال **﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾** أي وأرسلنا الى قوم مدين أخاهم شعيباً **﴿فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخِر﴾** أي فقال لقومه ناصحاً ومذكراً : يا قوم وحِّدوا الله وخافوا عقابه الشديد في اليوم الآخر **﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾** أي لا تسعوا بالإفساد في الأرض بأنواع البغي والعدوان **﴿فكذبوه فأخذتهم الرجفة﴾** أي فكذبوا رسولهم شعيباً فأهلكهم الله برجفةٍ عظيمة مدمرة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة هائلة أخرجت القلوب من حناجرها **﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾** أي فأصبحوا هلكى باركين على الركب ميتين **﴿وعاداً وثمود وقد تبيَّن لكم من مساكنهم﴾** أي وأهلكنا عاداً وثمود ، وقد ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم بالحجاز واليمن آيتنا في هلاكهم أفلا تعتبرون ؟ **﴿وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم﴾**

(١) حاشية الصاوي ٣/ ٢٣٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٦ .

﴿أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ

أي وحسَّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الكفر والمعاصي حتى رأوها حسنة **﴿فصدَّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾** أي فمنعهم عن طريق الحق ، وكانوا عقلاء متمكنين من النظر والاستدلال ، لكنهم لم يفعلوا تكبراً وعناداً **﴿وقارون وفرعون وهامان﴾** أي وأهلكنا كذلك الجبابرة الظالمين ، **﴿قارون﴾** صاحب الكنوز الكثيرة **﴿وفرعون﴾** صاحب الملك والسلطان ، ووزيره **﴿هامان﴾** الذي كان يُعينُه على الظلم والطغيان **﴿ولقد جاءهم موسى بالبينات﴾** أي ولقد جاءهم موسى بالحجج الباهرة ، والآيات الظاهرة **﴿فاستكبروا في الأرض﴾** أي فاستكبروا عن عبادة الله وطاعة رسوله **﴿وما كانوا سابقين﴾** أي وما كانوا ليفلتوا من عذابنا قال الطبري : أي ما كانوا ليفوتونا بل كنا مقتدرين عليهم[1] **﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾** أي فكلاً من هؤلاء المجرمين أهلكناه بسبب ذنبه وعاقبناه بجنايته قال ابن كثير : أي وكانت عقوبته بما يناسبه[2] **﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾** أي ريحاً عاصفة مدمرة فيها حصباء « حجارة » كقوم لوط **﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾** أي ومنهم من أخذته صيحةُ العذاب مع الرجفة كثمود **﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾** أي خسفنا به وبأملاكه الأرض حتى غاب فيها كقارون وأصحابه **﴿ومنهم من أغرقنا﴾** أي أهلكناه بالغرق كقوم نوح وفرعون وجنده **﴿وما كان الله ليظلمهم﴾** أي وما كان الله ليعذبهم من غير ذنب فيكون لهم ظالماً **﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾** أي ولكن ظلموا أنفسهم فاستحقوا العذاب والدمار ، ثم ضرب تعالى مثلاً للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله فقال **﴿مثلُ الذين اتخذوا من دونِ الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾** أي مثل الذين اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها في اعتمادهم عليها ورجائهم نفعها كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً لا يغني عنها في حر ولا برد ، ولا مطر ولا أذى قال القرطبي : هذا مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً[3] **﴿وإن أوهن البيوت لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾** أي وإن أضعف البيوت لبيتُ العنكبوت لتفاهته وحقارته ، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ما عبدوها **﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾** أي هو تعالى عالم بما عبدوه من دونه لا يخفى عليه ذلك ، وسيجازيهم على كفرهم **﴿وهو العزيز الحكيم﴾** أي وهو جل وعلا العزيز في ملكه ، الحكيم في

(١) الطبري ٢٠/٩٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٣٧ . (٣) القرطبي ١٣/٣٤٥ نقلاً عن الفراء .

﴿الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

صنعه **﴿وتلك الأمثالُ نضربها للناس﴾** أي وتلك الأمثال نبينها للناس في القرآن لتقريبها الى أذهانهم **﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾** أي وما يدركها ويفهمها إلا العالمون الراسخون ، الذين يعقلون عن الله عز وجل مراده **﴿خلق الله السموات والأرض بالحق﴾** أي خلقهما بالحق الثابت لا على وجه العبث واللعب **﴿إن في ذلك لآيةً للمؤمنين﴾** أي إن في خلقهما بذلك الشكل البديع ، والصنع المحكم لعلامة ودلالة للمصدقين بوجود الله ووحدانيته **﴿ أتْلُ ما أوحي إليك من الكتاب﴾** أي اقرأ يا محمد هذا القرآن المجيد الذي أوحاه إليك ربك ، وتقرّب إليه بتلاوته وترداده ، لأن فيه محاسن الآداب ومكارم الأخلاق **﴿وأقم الصلاة﴾** أي دم على إقامتها بأركانها وشروطها وآدابها فإنها عماد الدين **﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾** أي إنَّ الصلاة الجامعة لشروطها وآدابها ، المستوفية لخشوعها وأحكامها ، إذا أداها المصلي كما ينبغي ، وكان خاشعاً في صلاته ، متذكراً لعظمة ربه ، متدبراً لما يتلو ، نهته عن الفواحش والمنكرات **﴿ولذكر الله أكبر﴾** أي ولذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا ، وهو أن تتذكر عظمته وجلاله ، وتذكره في صلاتك وفي بيعك وشرائك ، وفي أمور حياتك ولا تغفل عنه في جميع شؤونك **﴿والله يعلم ما تصنعون﴾** أي يعلم جميع أعمالكم وأفعالكم فيجازيكم عليها أحسن المجازاة ، قال أبو العالية : إن الصلاة فيها ثلاث خصال : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله ؛فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله ـ القرآن ـ يأمره وينهاه فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة[1] .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التأكيد بعدة مؤكدات والاطناب بتكرار الفعل تهجيناً لعملهم القبيح وتوبيخاً **﴿إنكم لتأتون الفاحشة . . أئنكم لتأتون الرجال﴾** الاية .

٢ ـ الاستهزاء والسخرية **﴿ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾** وجواب الشرط محذوف دل عليه السابق أي إن كنت صادقاً فائتنا به .

٣ ـ التنكير لإفادة التهويل **﴿رجزاً من السماء﴾** أي رجزاً عظيماً هائلاً .

٤ ـ تقديم المفعول للعناية والاهتمام ، والإجمال ثم التفصيل **﴿فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة﴾** الخ .

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٨ .

٥ ـ التشبيه التمثيلي ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ شبَّه الله الكافرين في عبادتهم للأصنام بالعنكبوت في بنائها بيتاً ضعيفاً واهياً يتهاوى من هبة نسيم أو من نفخة فم ، وسمي تمثيلياً لأن وجه الشبه صورة منتزعة من متعدد .

٦ ـ توافق الفواصل في الحرف الاخير وما فيه من جرس عذب بديع مثل ﴿انصرني على القوم المفسدين . . إن أهلها كانوا ظالمين﴾ ومثل ﴿وإن أوهن البيوت لبيتُ العنكبوت﴾ ومثل ﴿بما كانوا يفسقون . . وآية بينة لقوم يعقلون﴾ الخ وهو من خصائص القرآن .

تـنبيـه : أفادت الآية أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وقد ثبت ان رسول الله ﷺ لما قيل له : إن فلاناً يصلي الليل فاذا أصبح سرق فقال: (ستمنعه صلاته) رواه البزار ، يريد عليه السلام أن الصلاة إذا كانت على الوجه الأكمل ، تنهى صاحبها عن الفحشاء ، ولا تزيده بعداً بل تزيده قرباً .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن . . . إلى . . وإن الله لمع المحسنين﴾ . من آية (٤٦) إلى آية (٦٩) نهاية السورة الكريمة

المنَاسَبَة : لما بيَّن تعالى ضلال من اتخذ أولياء من دون الله ، وضرب المثل ببيت العنكبوت ، أمر هنا بالتلطف في دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان ، ثم ذكر البراهين القاطعة على صدق محمد ﷺ وصحة القرآن ، وختم السورة الكريمة ببيان المانع من التوحيد وهو اغترار الناس بالحياة الدنيا الفانية ، وبيَّن أن المشركين يوحدون الله وقت الشدة ، وينسونه وقت الرخاء .

اللغَـة : ﴿بغتة﴾ فجأة يقال : بَغَتَه إذا دهمه على حين غفلة ﴿يغشاهم﴾ يجللهم ويغطيهم من فوقهم ، والغشاء : الغطاء ﴿لنبوئنهم﴾ بوأه : أنزله في المكان على وجه الإقامة ﴿غرفاً﴾ منازل رفيعة عالية في الجنة ﴿يؤفكون﴾ يُصرفون عن الحق إلى الباطل ﴿يبسط﴾ يوسّع ﴿يقدر﴾ يضيق ﴿مثوى﴾ المكان الذي يقيم فيه الإنسان .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمر المؤمنين بالهجرة حين آذاهم المشركون فقال لهم : اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ، ولا تجاوروا الظلمة ، قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ، ولا من يطعمنا ولا من يسقينا فنزلت ﴿وكأيِّن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم . .﴾[1] الآية .

* وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ

التفسِير : ﴿ولا تُجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ أي لا تدعو أهل الكتاب إلى الإسلام وتناقشوهم في أمر الدين إلا بالطريقة الحسنى كالدعاء إلى الله بآياته ، والتنبيه على حججه وبيناته ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ أي إلا من كان ظالماً ، محارباً لكم ، مجاهداً في عداوتكم ، فجادلوهم بالغلظة

(١) القرطبي ١٣/ ٣٦٠ .

﴿إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾

والشدة قال الإمام الفخر : إن المشرك لما جاء بالمنكر الفظيع كان اللائق أن يُجادل بالأخشن ، ويُبالغ في توهين شبهه وتهجين مذهبه ، وأما أهل الكتاب فإنهم آمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل إلا الاعتراف بالنبي عليه السلام ، فلمقابلة إحسانهم يُجادلون بالأحسن إلا الذين ظلموا منهم بإثبات الولد لله ، والقول بثالث ثلاثة فإنهم يُجادلون بالأخشن من تهجين مقالتهم ، وتبيين جهالتهم[1] ﴿وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأنزل إليكم﴾ أي وقولوا لهم : آمنا بالقرآن الذي أُنزل إلينا وبالتوراة والإنجيل التي أنزلت إليكم ، قال أبو هريرة : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم﴾[2] ﴿وإلهنا وإلهكم واحدٌ ونحن له مسلمون﴾ أي ربنا وربكم واحد لا شريك له في الألوهية ، ونحن له مطيعون ، مستسلمون لحكمه وأمره ﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب﴾ أي وكما أنزلنا الكتاب على من قبلك يا محمد أنزلناه عليك ﴿فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ أي فالذين أعطيناهم الكتاب كعبد الله ابن سلام وأمثاله ممن أسلم من اليهود والنصارى يؤمنون بالقرآن ﴿ومن هؤلاء من يؤمنُ به﴾ أي ومن أهل مكة من يؤمن بالقرآن كذلك ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ أي وما يكذب بآياتنا وينكرها مع ظهورها وقيام الحجة عليها إلا المتوغلون في الكفر ، المصرّون على العناد قال قتادة : وإنما يكون الجحود بعد المعرفة[3] ﴿وما كنتَ تتلوا من قبله من كتابٍ ولا تخُطه بيمينك﴾ أي وما كنتَ يا محمد تعرف القراءة ولا الكتابة قبل نزول هذا القرآن لأنك أميٌ قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ أمياً لا يقرأ شيئاً ولا يكتب[4] ﴿إذاً لارتاب المبطلون﴾ أي لو كنت تقرأ أو تكتب إذاً لشك الكفار في القرآن وقالوا ؛ لعله التقطه من كتب الأوائل ونسبه إلى الله ، والآيةُ احتجاجٌ على أن القرآن من عند الله ، لأن النبي أميٌ وجاءهم بهذا الكتاب المعجز ، المتضمن لأخبار الأمم السابقة ، والأمور الغيبية ، وذلك أكبر برهان على صدقه ﷺ قال ابن كثير : المعنى قد لبثت في قومك يا محمد ـ من قبل أن تأتي بهذا القرآن ـ عمراً لا تقرأ كتاباً ، ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك يعرف أنك أميٌ لا تقرأ ولا تكتب ، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة ، ولا يخط حرفاً ولا سطراً بيده ، بل كان له كتّاب يكتبون له الوحي[5] ﴿بل هو آياتٌ بيناتٌ في صدور الذين أُوتوا العلم﴾ ﴿بل﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما حسب الظالمون والمبطلون بل هو آياتٌ واضحاتُ الإعجاز ، ساطعات الدلالة على أنها من عند الله ، محفوظة في صدور العلماء ، قال

(١) التفسير الكبير ٢٥/ ٧٥ . (٢) أخرجه البخاري كذا في القرطبي ١٣/ ٣٥١ . (٣) الطبري ٢١/ ٤ . (٤) نفس المرجع السابق والصفحة . (٥) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٠ .

ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً

المفسرون : من خصائص القرآن العظيم أنَّ الله حفظه من التبديل والتغيير بطريقين : الأول : الحفظُ في السطور ، والثاني : الحفظُ في الصدور ، بخلاف غيره من الكتب فإنها مسطَّرة لديهم غير محفوظة في صدورهم ولهذا دخلها التحريف ، وقد جاء في صفة هذه الأمة « أناجيلُهم في صدورهم » وقال الحسن : أُعطيت هذه الأمة الحفظ ، وكان من قبلها لا يقرءون كتابهم إلا نظراً ، فإذا أطبقوه لم يحفظ ما فيه إلا النبيّون[1] ﴿وما يجحدُ بآياتنا إلا الظالمون﴾ أي وما يكذب بها إلا المتجاوزون الحد في الكفر والعناد ﴿وقالوا لولا أُنزل عليه آياتٌ من ربه﴾ أي وقال كفار مكة : هلاَّ أُنزل على محمد آيات خارقة من ربه تدل على صدقه مثل ناقة صالح ، وعصا موسى ، ومائدة عيسى !! ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي قل لهم يا محمد : إنما أمر هذه الخوارق والمعجزات لله وليست بيدي ، إن شاء أرسلها ، وإن شاء منعها ، وليس لأحدٍ دخلٌ فيها ﴿وإنما أنا نذيرٌ مبين﴾ أي وإنما أنا منذر أخوفكم عذاب الله ، وليس من شأني أن آتي بالآيات ﴿أولم يكفِهمْ أنَّا أنزلنا عليك الكتابَ يُتلى عليهم﴾ ؟ الاستفهام للتوبيخ أي أولم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي لا يزال يقرع أسماعهم ؟ وكيف يطلبون آيةً والقرآن أعظم الآيات وأوضحها دلالة على صحة نبوتك ؟ قال ابن كثير : بيَّن تعالى كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آياتٍ تدل على صدق محمد ﷺ ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة سورة منه ، أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم وأنت رجلٌ أميٌ لا تقرأ ولا تكتب ، وجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى[2] ؟ ولهذا قال بعده ﴿إنَّ في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون﴾ أي إن في إنزال هذا القرآن لنعمةً عظيمة على العباد بإنقاذهم من الضلالة ، وتذكرة بليغة لقوم غرضهم الإيمان لا التعنت ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أي قل لهم : كفى أن يكون الله جلَّ وعلا شاهداً على صدقي ، يشهد لي أني رسولُه ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أمر العباد ، فلو كنتُ كاذباً عليه لانتقم مني ﴿والذينَ آمنوا بالباطل وكفروا بالله أُولئك هم الخاسرُون﴾ أي والذين آمنوا بالأوثان وكفروا بالرحمن ، أولئك هم الكاملون في الخسران حيث اشتروا الكفر بالإيمان ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ أي يستعجلك يا محمد المشركون بالعذاب يقولون ﴿أمطرْ علينا حجارة من السماء﴾ وهو

(١) القرطبي ١٣/ ٣٥٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٤١ .

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

استعجال على جهة التكذيب والاستهزاء ﴿ولولا أجلٌ مسمّى لجاءهم العذاب﴾ أي لولا أن الله قدَّر لعذابهم وهلاكهم وقتاً محدوداً لجاءهم العذاب حين طلبوه ﴿وليأتينَّهم بغتةً وهم لا يشعرون﴾ أي وليأتينهم فجأةً وهم ساهون لاهون لا يشعرون بوقت مجيئه ﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطةٌ بالكافرين﴾ تعجبٌ من قلة فطنتهم ومن تعنتهم وعنادهم والمعنى : كيف يستعجلون العذاب والحال أن جهنم محيطةٌ بهم يوم القيامة كإحاطة السوار بالمعصم ، لا مفرٌّ لهم منها ؟ ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم بهم فقال ﴿يوم يغشاهم العذابُ من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي يوم يجللهم العذاب ويحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ، ومن جميع جهاتهم ﴿ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ أي ويقول الله عز وجل لهم : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا من الاستهزاء والإجرام ، وسيء الأعمال ، ثم لما بيَّن تعالى حال المكذبين الجاحدين ، أعقبه بذكر حال الأبرار المتقين فقال ﴿يا عبادي الذين آمنوا إنَّ أرضي واسعة﴾ خطابُ تشريفٍ للتحريض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام أي يا من شرفكم الله بالعبودية له هاجروا من مكة إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان فيها ، ولا تجاوروا الظلمة فأرضُ الله واسعة قال مقاتل : نزلت في ضعفاء مسلمي مكة[1] ﴿فإيايَ فاعبدون﴾ أي فخصوني بالعبادة ولا تعبدوا أحداً سواي ﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ثم إلينا ترجعون﴾ أي أينما كنتم يدرككم الموتُ ، فكونوا دائماً وأبداً في طاعة الله ، وحيث أُمرتم فهاجروا فإن الموت لا بدَّ منه ولا محيد عنه ، ثم إلى الله المرجع والمآب ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بين إخلاص العقيدة وإخلاص العمل ﴿لنبوئنَّهم من الجنة غُرفاً﴾ أي لننزلنَّهم أعالي الجنة ولنسكننهم منازل رفيعة فيها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها إلى غير نهاية لا يخرجون منها أبداً ﴿نعم أجرُ العاملين﴾ أي نعمت تلك المساكن العالية في جناتِ النعيم أجراً للعاملين ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ هذا بيانٌ للعاملين أي هم الذين صبروا على تحمل المشاقِّ من الهجرة والأذى في سبيل الله ، وعلى ربهم يعتمدون في جميع أمورهم قال في البحر : وهذان جماع الخير كله : الصبر ، وتفويض الأمر إليه تعالى[2] ﴿وكأين من دابةٍ لا تحملُ رزقها﴾ أي كم من دابة ضعيفة لا تقدر على كسب رزقها ولكنَّ الله يرزقها مع ضعفها ﴿الله يرزقها

(١) زاد المسير ٦/ ٢٨١ . (٢) البحر ٧/ ١٥٧ .

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ﴾

وإياكم﴾ أي الله تعالى يرزقها كما يرزقكم ، وقد تكفل برزق جميع الخلق ، فلا تخافوا الفقر إن هاجرتم ، فالرازق هو الله قال في التسهيل : والقصدُ بالآية التقوية لقلوب المؤمنين إذا خافوا الفقر والجوع في الهجرة من أوطانهم ، فكما يرزق الله الحيوانات الضعيفة كذلك يرزقكم إذا هاجرتم من بلدكم[1] **﴿وهو السميعُ العليم﴾** أي هو السميع لأقوالكم ، العليمُ بأحوالكم ، ثم عاد الحديث إلى توبيخ المشركين في عبادة غير الله فقال **﴿ولئن سألتهم من خلق السمواتِ والأرضَ وسخَّر الشمس والقمر ليقولُنَّ الله﴾** أي ولئن سألت المشركين من خلق العالم العلوي والسفلي وما فيهما من العجائب والغرائب ؟ ومن ذلَّل الشمس والقمر وسخرهما لمصالح العباد يجريان بنظام دقيق؟ ليقولون : الله خالق ذلك **﴿فأنَّى يؤفكون﴾** أي فكيف يُصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك ؟ **﴿اللهُ يبسط الرزق لمن يشاءُ من عباده ويقدر له﴾** أي هو جلَّ وعلا الخالق وهو الرازق ، يوسّع الرزق لمن يشاء من عباده امتحاناً ، ويضيّق الرزق على من يشاء ابتلاءً ، ليظهر الشاكر والصابر **﴿إن الله بكل شيء عليم﴾** أي إنه تعالى واسع العلم يفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة **﴿ولئن سألتهم من نزَّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولُنَّ الله﴾** توبيخٌ آخر وإقامة حجة أخرى عليهم أي ولئن سألت المشركين من الذي أنزل المطر من السماء فأخرج به أنواع الزروع والثمار بعد جدب الأرض ويبسها ؟ ليقولون : الله فاعلُ ذلك **﴿قل الحمدُ لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾** أي قل يا محمد : حمداً لله على ظهور الحجة ، بل أكثرهم لا يعقلون ، حيث يقرون بأن الله هو الخالق الرازق ويعبدون غيره **﴿وما هذه الحياةُ الدنيا إلا لهوٌ ولعبٌ﴾** أي وما الحياة في هذه الدنيا إلا غرور ينقضي سريعاً ويزول ، كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون **﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾** أي وإن الآخرة لهي دار الحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا تنغيص **﴿لو كانوا يعلمون﴾** أي لو كان عندهم علم لم يُؤْثروا دار الفناء على دار البقاء ، لأن الدنيا حقيرة لا تزن عند الله جناح بعوضة[2] ، ولقد أحسن من قال :

تأمَّلْ في الوجود بعين فكر ... ترى الدنيا الدنيَّةَ كالخيال
ومَنْ فيها جميعاً سوف يفنى ... ويبقى وجهُ ربك ذو الجلال

﴿فإذا ركبوا في الفُلْك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ إقامة حجة ثالثة على المشركين في دعائهم الله عند

---

(١) التسهيل ٣/ ١١٩ . (٢) في الحديث الشريف (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً جرعة ماء) .

﴿الذين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ۝٦٥ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون ۝٦٦ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ۝٦٧ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين ۝٦٨ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ۝٦٩﴾

الشدائد ، ثم يشركون به في حال الرخاء والمعنى إذا ركبوا في السفن وخافوا الغرق دعوا الله مخلصين له الدعاء، لعلمهم أنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو ، وفي لفظ ﴿مخلصين﴾ ضربٌ من التهكم ﴿فلما نجَّاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ أي فلما خلَّصهم من أهوال البحر ، ونجاهم إلى جانب البر إذا هم يعودون إلى كفرهم وإشراكهم ، ناسين ربهم الذي أنقذهم من الشدائد والأهوال ﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون﴾ أمرٌ على وجه التهديد أي فليكفروا بما أعطيناهم من نعمة الإنجاء من البحر ، وليتمتعوا في هذه الحياة الدنيا بباقي أعمارهم ، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم ﴿أولم يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ أي أولم ير هؤلاء الكفار ، رؤية تفكر واعتبار ، أنا جعلنا بلدهم «مكة» حرماً مصوناً عن السلب والنهب ، آمناً أهله من القتل والسبي ، والناسُ حولهم يُسبون ويقتلون ؟ قال الضحاك : ﴿ويتخطف الناس من حولهم﴾ أي يقتل بعضُهم بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً[1] ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ أي أفبعد هذه النعم الجليلة يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن ؟ ﴿ومن أظلمُ ممن افترى على الله كذباً أو كذَّب بالحقِّ لما جاءه﴾ أي لا أحد أظلم ممن عبد غير الله وكذَّب بالقرآن حين جاءه ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ ؟ أي أليس في جهنم مأوى وموضع إقامة للكافرين بآيات الله جزاء افترائهم وكفرهم ؟ ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا﴾ أي والذين جاهدوا النفس والشيطان والهوى والكفرة أعداء الدين ابتغاء مرضاتنا لنهدينهم طريق السير إلينا ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ أي مع المؤمنين بالنصر والعون .

البلاغة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التحضيض ﴿لولا أُنزل عليه آياتٌ من ربه﴾ .

٢ ـ الطباق ﴿آمنوا بالباطل وكفروا بالله﴾ .

٣ ـ إفادة القصر ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ أي لا غيرهم .

٤ ـ الإطناب بذكر العذاب مراتٍ للتشنيع على المشركين ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل

(١) القرطبي ١٣/٣٦٣ .

مسمى﴾ ﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم﴾ ﴿يوم يغشاهم العذاب﴾ الخ .

٥ ـ الإضافة للتشريف والتكريم ﴿يا عبادي الذين آمنوا﴾ .

٦ ـ الطباق ﴿يبسط الرزق . . ويقدر﴾ ومثله ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ .

٧ ـ المجاز العقلي ﴿حرماً آمناً﴾ أي آمناً أهله .

٨ ـ التشبيه البليغ ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعبٌ﴾ أي كاللهو وكاللعب حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً على حد قولهم : « زيدٌ أسد » .

٩ ـ الإيجاز بحذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لو كانوا يعلمون لما آثروا الدنيا على الآخرة ، ولا الفانية على الباقية .

١٠ ـ مراعاة الفواصل لما لها من وقع عظيم على السمع يزيد الكلام رونقاً وجمالاً مثل ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ﴿إذا هم يشركون﴾ الخ .

تنبيه : لا ينبغي لمسلمٍ أن يبقى بأرض لا يتيسر له فيها عبادة الله ، فأرض الله واسعة ، وقد أشارت الآيات إلى وجوب الهجرة إلى دار الإسلام وكما قيل « وكل مكان يُنبت العزَّ طيّب » .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة العنكبوت »

* * *

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير
معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي
وَجَعَلَهُ وَقْفًا لله تعالى

يوزع مجانًا ولا يباع

طبع على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

جزاه الله خيرا